بسم الله الرحمن الرحيم

وقفة مع الأمة الإسلامية

تابعت باهتمام ما أثارته مجلة «الأمة» الغراء، منذ كتب الأخ الفاضل د. نعمان السمرائي، مقالة: أين الخلل؟ في العدد السادس والأربعين. وقد دعت المجلة أهل الرأي والفكر إلى المشاركة في هذه القضية حتى تستبين معالمها، كما شرفتني بالبحث على الإسهام فيها بنصيب.

والقضية خليقة أن تفرد بالعناية، وأن يمنحها رجال الفكر الإسلامي بعض وقتهم وجهدهم. وأحسب أني ممن ساهم فيها من قبل ببعض ما كتبت من كتب ومقالات. ولكن الجهد فيها ينبغي أن يستمر ولا يتوقف.

ولا بد من البداية أن نحدد المشكلة التي نبحث عن حلها: ما هي؟

أهي البحث عن «الخلل» لنسده؟ أن نحن نعرف «الخلل» فعلًا ولكننا لا نعرف كيف نسده؟ هل المشكلة في صعوبة «التشخيص» أم في وصف العلاج؟ أم في الإيمان به والصبر على تناوله مهما يكن مرًا؟

وبعبارة أخرى:

هل تتجسد مشكلتنا في عدم وجود الطبيب القادر على التشخيص؟ أم في عدم وجود الداء الناجع في اقتلاع الداء؟ أم في أن المريض نفسه غير قابل للدواء، ولا متجاوب مع العلاج؟

ثم لا بد أن نحدد المحيط الذي نبحث فيه عن «الخلل» أو «العلل» أهو

محيط الأمة الإسلامية على اتساعها أم هو محيط الحركة الإسلامية؟ أم هما معًا؟

أعني: من هو المريض الذي نَطِبُ له، والذي نحاول أن نشخص داءه، ونصف دواءه؟ وأعتقد أننا لا نتحدث عن الخليج، ولا عن العرب فقط، ولكن عن الأمة الإسلامية، حيثما ارتفعت المآذن، ونادى المنادي: الله أكبر.

وإذا كنا نبحث في محيط أمتنا الكبرى، فإن كلمة «الخلل» فيها تساهل كبير لا يعبر عن الواقع الذي نعانيه، والأدواء التي تشكو منها.

إنه ليس خللًا بل غيبة عن الوعي:

إن عبارة «الخلل» عند إطلاقها تعني أن الغاية قد حددت، وأن الطريق قد اتضح، وأن الوسيلة قد هيئت، ولكن الخلل أصاب الوسيلة في وسط الطريق.

خذ لذلك مثلًا الطالب الذي يريد أن يسافر ليطلب العلم، وقد عرف أي علم يطلب؟ وإلى أي بلد يذهب؟ وأي طريق يسلك؟ ولكن سيارته التي يمتطيها تعطلت في الطريق، إن هناك خللًا ولا بد قد حدث. أهو في المولد؟ أم في «الموتور»؟ أم في غيرهما؟ لا بد من البحث عنه حتى يعرف ما هو، فإذا عرفناه عالجناه.

فإذا طبقنا ذلك على حال أمتنا الإسلامية، وجدنا الأمر أكبر وأعمق من مجرد «خلل»، إنه غيبة عن الوعي، إنه فقدان الهوية، إنه التيه عن الغاية ومن بعده - بالضرورة - ضياع الطريق!!

أمة نسيت نفسها:

إننا إذا نظرنا إلى أمتنا في ضوء ما وصفها به الله في كتابه، وجدناها أمة

أخرى غير أمة القرآن، وصفها الله تعالى بالخيرية، وعلل خيريتها بأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ} [آل عمران: 110]. وأمتنا اليوم - إلا من رَحِم ربك - لا تأمر بالمعروف، ولا تنهى عن المنكر، بل فقدت حسها وميزانها، فرأت المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، بل بات فيها من يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف، وغشيتها فتنة تذر الحلم حيران.

أمتنا وصفها الله بالواسطية حين قال: {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} [البقرة: 143]، وهي الآن قد تركت المنهج الوسط، والموقع الوسط لتميل إلى اليمين أو اليسار، وتجنح إلى الشرق أو الغرب، فتركت «الصراط المستقيم» صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، إلى طريق المغضوب عليهم والضالين، واتبعت سننهم شبرًا بشبر، ذراعًا بذراع.

وصفها الله بالوحدة حين قال: {إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ} [الأنبياء: 92]، وهي الآن لم تعد أمة واحدة، كما يحب الله، بل أُممًا شتى كما أراد الاستعمار، أمم تعادي بعضها بعضًا، بل يقاتل بعضها بعضًا.

والخلاصة: أن أمتنا نسيت الله فأنساها ذاتها، وصدق الله: {وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ} [الحشر: 19].

والحق أنه لا معنى لوجود هذه الأمة بغير الإسلام، ولا انتصار لها بغير الإسلام، ولا وحدة لها بغير الإسلام، ولا عزة لها بغير الإسلام، ورضي الله عن أمير المؤمنين عمر الذي قال: «نحن كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العز بغيره أذلنا الله»!!

أمتنا في ضوء معايير التقدم المادي:

وإذا نظرنا إلى أمتنا في ضوء معايير التقدم المادي المعاصر، وجدناها وراء وراء!!.

إنها لا زالت عالة على الأُمم الأخرى في قوام حياتها الاقتصادية والعسكرية. إنها لا تنتج الكفاية من القوت الذي به قيام المعيشة، ولا من السلاح الذي به حماية السيادة.

إن المسلمين في الأعصر الأخيرة: «رضوا بالزرع، وتبعوا أذناب البقر» كما وصفهم الحديث النبوي، ومع هذا لم يعطهم زرعهم من الثمر، ولا بقرهم من اللبن، ما يغنيهم عن الاستيراد من غيرهم.

أُمة معطلة الطاقات:

إن مصيبة الأُمة الإسلامية أن طاقاتها - برغم كثرتها وضخامتها وتنوعها - معطلة! ولا أعني بتعطيلها الشلل الكلي، بل الشلل الجزئي؛ أعني أنها لا تعمل بكامل طاقاتها لتعويض ما فاتها في عهود النوم والغفلة، وللحاق بركب التقدم العالمي، وهو ما يحتم عليها مضاعفة الجهد، وتكثيف العطاء، ولكن أمتنا لا تعمل بنصف طاقتها، ولا بربعها، ولا بخمسها، ولا بعشرها، فأرخص شيء عندها هو الوقت، وأثقل شيء عليها هو العمل، وأقل الثروات قيمة عندها هو الإنسان!!

طاقاتنا العقلية معطلة:

إن طاقاتنا العقلية معطلة، لأننا نقلد، ولا نجتهد، نحاكي ولا نبدع، ننقل ولا نبتكر، نحفظ ولا نفكر، أي نستخدم تفكير غيرنا، ولا نفكر نحن لأنفسنا،

سواء أكان ذلك الغير أسلافنا من الماضين أم غيرنا من الحاضرين.

وليس هذا في العلوم «التراثية» وحدها، كما يتوهم، بل في العلوم الطبيعية والرياضية أيضًا، فنحن نحفظ قوانينها، ولا نحسن الاستفادة منها، وحسبنا أن الغربيين يفكرون ويخترعون لنا، فهم المكتشفون والمبدعون، ونحن التراجمة!!

وكفانا عارًا أن عشرين دولة تعلم العلوم بلغات أجنبية، معترفة بعجزها عن تعليمها بالعربية، وأن «إسرائيل» - دولة المليونين أو الثلاثة - تعلم العلوم بالعبرية!!

حتى العلوم الإنسانية التي تتلون بتلون كل أمة وعقائدها، وقيمها وثقافتها واختلاف نظرتها إلى الكون ومكونه، وإلى الإنسان ... حقيقة، وإلى الحياة ومصيرها، وإلى المعرفة ومصادرها، هذه العلوم الإنسانية نقلناها عن الغرب نقلًا حرفيًا كل حسب المدرسة التي أخذ عنها، وإن كانت كلها فروعًا من شجرة واحدة، هي شجرة المادية الملعونة في التوراة والإنجيل والقرآن.

ونظمنا التعليمية السائدة تساعد على إنشاء هذه العقلية المقلدة، وقد رأينا أقوى أمة في عالمنا «أمريكا» ترى نفسها على حافة الخطر، بسبب قصور التعليم فيها عما تنشده لأبنائها، وتتنادى بوجور درء الخطر الذي يواجهها في مسيرتها التعليمة، ولم يعمها صعودها إلى القمر أن ترى ضعف مستوى أبنائها على الأرض[1]. ونحن نرى ونلمس ضعف المستوى التعليمي في مجتمعاتنا إلى حد مخجل ولكننا صامتون أو مشغولون، أو مجاملون.

---

(1) انظر: التقرير الذي أصدره مكتب التربية العربي لدول الخليج تحت عنوان: «أمة معرضة للخطر» ترجمة وعرض الدكتور يوسف عبد المعطي.

إن نظمنا التعليمية تخرج موظفين، ولا تخرج مثقفين، وحتى القراءة فنحن لا نحب أن نقرأ، لأن القراءة تتطلب منّا جهدًا وتفكيرًا، حتى نفهم ونتابع، ولكن الكسل عندنا أحلى من العسل!!.

لقد قال «موشي ديان» يومًا لقومه من اليهود، وقد لاموه على بعض تصريحات تكشف عن أطماعهم وتطلعاتهم، وقد خشوا أن يقرأها العرب، ويكشفوا خططهم، قال لهم: اطمئنوا فإن العرب لا يقرأون!!.

والعجب من أمة أول آية نزلت في كتابها: {ٱقۡرَأۡ} لا تحسن أن تقرأ، وإذا قرأت لا تحسن أن تفهم، وإذا فهمت لا تحسن أن تعمل، وإذا عملت لا تحسن أن تستمر!!.

إن الله تعالى شاء أن يجعل معجزة الإسلام معجزة عقلية أدبية ولم يجعلها معجزة حسية، كما كان في رسالات سبقت، إعلاءً لشأن العقل في هذا الدين، وهذا الكتاب، الذي نزل خطابًا لأولي «النُهى» وأولي «الألباب» لا للبله أو الحمقى.

إن الله تعالى قد علل انتصار المسلمين على أعدائهم من المشركين واليهود بأن هؤلاء: **{قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ}** [المائدة: 85] أو **{بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ}** [الأنفال: 65] فكيف إذا بات المسلمون اليوم وهم أحق الناس بهذا الوصف «لا يعقلون»، و«لا يفقهون» لأنهم لم يفقهوا آيات الله المشهودة في كتابه الصامت: الكون، ولا آياته المقروءة في كتابة الناطق: القرآن، وقد أنزلها وفصلها **{لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ}** [الأنعام: 98]، و**{لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ}** [الأنعام: 105]!!

لقد ابتدعنا في دين الله، والابتداع في الدين ضلالة، وجمدنا في شئون

الدنيا، والجمود في الدنيا جهالة، وكان الأجدر بنا أن نعكس الوضع فنتبع في أمر الدين، ونبتدع في أمر الدنيا، فروح الدين الاقتداء وروح الدنيا الابتكار والابتداع!!

طاقاتنا العملية معطلة:

وطاقاتنا العملية معطلة، مع أن الله خلقنا لنعمل، بل خلقنا ليبلونا أينا **{أَحْسَنُ عَمَلًا}** [الملك: 2]، وهذا تعبير له إيحاؤه ودلالته، فليس المراد تمييز سيئ العمل من حسن العمل، بل المفترض أن يكون عمل الجميع حسنًا، ولكن أيهم أحسن وأرجح؟

والمسلم مطالب بالعمل إلى آخر رمق في الحياة، حتى لو قامت الساعة وفي يده فسيلة، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها، فليغرسها، كما أمره رسول الله صصص.

والعمل في الإسلام عبادة وجهاد سواء كان عملًا للدين أم للدنيا، إذا صحت فيه النية، والتزمت حدود الله تعالى، ولكن أمتنا للأسف أقل الأمم عطاءً وعملًا، وأكثرها كلامًا وجدلًا، نحن نتكلم كثيرًا ونعمل قليلًا، وكثيرًا ما نعمل غير المهم، وندع المهم، بل قد نعمل غير النافع، وندع النافع.

ونحن ندور حول أنفسنا كالثور في الطاحون، أو كالذي حكوه عن جحا وساقيته: «زعموا أن جحا صنع ساقية تأخذ الماء من النهر، ثم ترده إلى النهر، فلما سُئل في ذلك، قال: يكفيني نعيرها!!».

ولقد اشتركت في عدة مؤتمرات إسلامية عالمية، وصدرت عن هذا المؤتمرات توصيات مبصرة، ولكنها - إلا في القليل النادر - لم تر النور، ولم

تبرز إلى حيز التطبيق، وظلت حبرًا على ورق كما يقال ... ترى لماذا؟.

ألأننا تعودنا حسن الكلام ولم نتعود حسن العمل؟ ...

أم لأننا نتكلم ونتوقع من غيرنا أن يعمل؟ ...

أم لأننا نقرر ونقدر، ثم لا نتابع ماذا حدث فما قررناه؟ ...

لا أقلل من أهمية الكلمة الصادقة المعبرة وتأثيرها، فإن معجزة الإسلام الأولى - القرآن - إنما هي كلام، وأحاديث الرسول الكريم كلام، ولكن لا ينبغي أن يغطى الكلام على العمل، ولعل هذا بعض السر في نزول القرآن الكريم منجمًا في ثلاث وعشرين سنة؛ ليتيح الفرصة للمؤمنين أن يحولوا كلمات الله المنزلة إلى عمل صالح، وإلى حياة نابضة ناطقة، حتى وصفت عائشة الرسول صصص بكلمتها الشهيرة المعبرة: «كان خلقه القرآن» ... !!

ومن كلمات المعاصرين الحية وصف الصحابة رررت بأن الواحد منهم كان قرآنًا يسعى على قدمين!!.

إن الكلام لا بد منه، وإن الحرب أولها كلام كما قال الشاعر. ولكن الكلام يُذم إذا كان أكثر من العمل، ويُذم أكثر إذا كان بلا عمل، ويُذم أكثر وأكثر إذا كان مناقضًا للعمل، وفي هذا جاء وعيد الله يدوي وينذر: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ 2 كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ}** [الصف: 2، 3].

طاقاتنا الاقتصادية معطلة:

طاقاتنا الاقتصادية معطلة، فنحن نعيش في أهم بلاد الله موقعًا، وأطيبها

بقعة، وأخصبها أرضًا، وأحفلها بالمعادن المذخورة في باطنها، والثروات المنشورة في ظاهرها، ولكننا لم نستغل ثرواتنا، ولم نزرع أرضنا، ولم نصنّع المعادن والمواد «الخام» المستخرجة من أرضنا ... وما نزرعه من أرضنا - وهو قليل من كثير - لا نزال نزرعه - في غالب الأمر - بطريقة أجدادنا! وكثيرًا ما نجور على الأرض الحية الخضراء فنحيلها إلى مبان ومنشآت، ونعجز عن تحويل الأرض البور إلى أرض مزروعة، وهو ما سماه الفقه الإسلامي «إحياء الموات» أي أننا نميت الأرض الحية ولا نحيي الأرض الميتة!!

أصبح الطابع الغالب علينا: أننا نستهلك ولا ننتج، ونستورد ولا نصنع وقد ننتج ما لا نحتاج إليه ونهمل إنتاج ما نحن في أشد الحاجة إليه، ونفتخر باقتناء أفخر السيارات العالمية، ونحن لا نحسن صناعة دراجة!!

فلا غرو أن يهلك الملايين منا جوعًا، وبلادنا زراعية، ما دمنا عاجزين عن حفر بئر في الأرض، منتظرين المطر من السماء، وما دمنا نهتم بمظاهر الرفاهية لا بمصادر الإنتاج، كالذين حكى الله عنهم من أصحاب القرى الظالمة التي دمرها على أهلها **{فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ}** [الحج: 45]، وكان أولى بهم أن يهتموا بالآبار ومصادر المياه قبل تشييد القصور!!.

ولا غرو أن يصبح العالم الإسلامي كله في دائرة «البلاد النامية» وكلمة «النامية» تعبير مؤدب لـ «المتخلفة» التي تركب الجمال والحمير، وغيرها يركب سفن الفضاء، وإذا ركبت السيارات والطائرات فهي ليست من صنعها ... أليس من المؤسف المحزن أن نظل إلى اليوم عالة على غيرنا، فلا نزرع

من الحبوب ما يكفي غذاءنا، ولا نقيم من الصناعات ما يحمي ذمارنا؟

لقد رأينا عددًا من بلاد المسلمين في أفريقيا يسقط فيها هلكى تحت مطارق المجاعة والجفاف حيث لا يجدون ما يمسك الرمق، أو يطفي الحرق، وكان في الإمكان - لو فكروا في الأمر من قبل وخططوا له - أن تحفر آبار، وتدق أنابيب تستخرج بها المياه من جوف الأرض، فإذا فلم ينزل الغيث من السماء وجدوا فيما يستنبط من الأرض عوضًا.

ورأينا مسلمين آخرين - لوفرة ما تنتجه بلادهم - يتخلصون من الثمار بدفنها في الأرض، لأنهم لا يستطيعون تصنيعها، ولا يستطيعون حفظها، ولا يستطيعون نقلها!!

أليس هذا من العجز استعاذ منه صصص حين قال: «**اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل**»[2]، ونهى عنه، فقال: «**استعن بالله ولا تعجز**»[3]، وقال: «**إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس**»[4].

وإذا كان كل بلد عاجزًا إذا عمل وحده، أفلا تتكون من مجموع هذه البلاد قوة؟ ثم أين التكامل والتعاون بين البلاد الإسلامية؟

طاقاتنا العددية معطلة:

وطاقاتنا العددية معطلة، فنحن - وإن كنا ألف مليون مسلم - تفرقنا طرائق قددًا.

---

(2) رواه البخاري وأبو داود وغيرهما من حديث أنس.

(3) رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

(4) رواه أبو داود.

عمينا عن نور الله، فتقسمتنا ظلمات الطواغيت، وأعرضنا عن صراط الله الواحد، فتفرقت بنا السبل المتعددة، فمالت ببعضنا إلى اليمين، وانحرفت بآخرين إلى اليسار، وانحاز جماعة إلى الشرق، وآخرون إلى الغرب، ونسينا تحذير الله لنا: **{وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ}** [الأنعام: 153]. تفرقنا، والتفرق يضعف الكثرة، كما أن الاتحاد يقوي القلة.

لم نتكامل ولم نتعاون، ولم نتلاحم، في عصر يتكلم بلغة الكتل الكبيرة، ولا تستطيع القلة فيه أن تعيش وحدها، ولهذا رأينا الدول المتقدمة تقيم فيما بين بعضها وبعض الأحلاف العسكرية، والأسواق الاقتصادية إلى جوار التكتلات السياسية.

أما نحن فقد انقسمنا قوميًا بين عرب وعجم، وفكريًا بين تقدميين ورجعيين، وسياسيًا بين موالين للغرب وموالين للشرق. إلى غير ذلك من أنواع التمزق والانقسام.

كان المفروض أن نستفيد من طاقاتنا العددية، وقد قال: «جمال الدين الأفغاني» يومًا للهنود: «لو كانت ملايينكم ذبابًا يطن في أُذُن الإنجليز لخرقتم آذانهم»!!

ولكننا لم ننتفع بهذه القوة البشرية الضخمة، لأننا جعلنا الكثرة كارثة وهي في الأصل نعمة، ألا ترى القرآن يقول: **{وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡ}** [الأعراف: 86].

أصبح أكبر همّ الكثيرين منا من زاعمي الإصلاح - لا زعمائه - أن نقلل

عددنا ونحدد نسلنا! وفي الأرض أمم ضخمة لم تشك من كثرة سكانها كما نشكو. بل اجتهدت أن توظف الكثرة في خدمة الإنتاج.

طاقاتنا الروحية معطلة:

وقبل ذلك كله وبعده، طاقاتنا الروحية معطلة، فقد أعلينا الطين والحمأ المسنون فينا على نفخة الروح، التي هي سر تكريم الله لأنبيائنا من قبل، ولنا من بعد: **{فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ}** [الحجر: 29].

هبت رياح المعصية، فأطفأت شموع الخشية من قلوبنا، وطال علينا الأمد فقست قلوبنا من بعد، كما قست قلوب أهل الكتاب من قبل: **{فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً}** [البقرة: 74].

ولم تساعد مناهجنا التعليمية، وأجهزتنا التوجيهية على تكوين «المعاني الربانية» في أنفسنا، وصدق ما قاله المفكر الشاعر المسلم «محمد إقبال»، حين قال عن «المدرسة الحديثة»: إنها قد تفتح أعين الجيل الجديد على حقائق ومعارف، ولكنها لا تعلم عينهُ الدموع، ولا قلبه الخشوع! أسأنا فهم الدين الذي هو روح وجودنا، وسر بقائنا وتميزنا - حتى شغلنا بالشكل عن الجوهر وبالقالب عن القلب، مع أن أهم ما جاء به ديننا هو تطهير القلوب، وتزكية الأنفس: **{قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا 9 وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا}** [الشمس: 9، 10].

فإذا تغيرت هذه الأنفس، تغير المجتمع، وتحول مجرى التاريخ **{إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ}** [الرعد: 11].

صحيح أننا نحتفل بالأعياد والمواسم الدينية، ونعطل الدوائر الرسمية - في أكثر بلاد الإسلام - أيام الجمع والأعياد، ونطبع المصاحف والكتب الدينية ...

إلخ، ولكن هذا لا يعني أننا أعطينا للدين حقه، ووقفنا عند حدوده، فنحن نحتفل به ونتمرد عليه، كالذي يقبل يد الشيخ ولا يسمع نصحه، وأخشى أن يسلكنا ذلك في زمرة: **{ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا}** [الأعراف: 51].

وأَسواء ما يصيب حياة أمة أن يصبح الدين فيها لهوًا، ويصبح اللهو فيها دينًا!!.

وكيف لا؟ وقد أصبحنا نزين جدراننا بآيات القرآن، ولا نزين حياتنا بالعمل بالقرآن، نقرؤه على الأموات، ولا نحكمه في الأحياء! نجعل البركة في مجرد حمله أو تلاوته، وإنما البركة الحقيقية في اتباعه وتحكيمه: **{وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ}** [الأنعام: 155].

اجترأنا على الله تعالى، فعطلنا شريعته، وجمّدنا أحكامه، وتطاولنا على علمه وحكمته، حتى كأننا أعلم بالخلق وبمصالحهم منه: **{قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُ}** [البقرة: 140] **{أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ}** [الملك: 14].

وطالما قلت، وسأظل أقول: إن مفتاح شخصية هذه الأمة ومفجر طاقاتها هو الإيمان: إيمان الإسلام، الذي جعل هذه الأمة من قبل خير أمة أُخرجت للناس، وحقق لها النصر على أعظم الإمبراطوريات في الأرض، على الرغم من قلة عددها، وضعف عدتها.

وبهذا الإيمان انتصرت بعد على هجمات التتار الزاحفين من الشرق، والصليبيين الزاحفين من الغرب، وبه تستطيع اليوم الانتصار على ورثة هؤلاء وهؤلاء.

استغل اليهود طاقاتهم الروحية ودوافعهم الدينية، فأيقظوا بها أمتهم من سبات، وجمعوا بها طوائفهم من شتات، وأحيوا بها لغتهم من موات، حتى واجهونا ومعهم التوراة، وليس معنا القرآن! تجمعوا على اليهودية وتفرقنا عن الإسلام! تشبثوا بتعاليم التلمود، وسخرنا نحن من البخاري ومسلم! قال زعماؤهم في اعتزاز: هكذا علمنا أنبياؤنا، واعتز زعماؤنا بماركس ولينين!!.

نحن نملك أعظم عقيدة، وأكمل رسالة، ولدينا الكتاب الإلهي الوحيد المحفظ من التحريف والتبديل، ولكننا في غمرة ساهون، وعن مصادر قوتنا غافلون.

نحن كثرة، ولكن - كما وصفنا الحديث النبوي: «**كثرة كغثاء السيل**»(5).

وسر ذلك يرجع إلى خراب الباطن من قوة الإيمان الذي يصغر لدى المؤمن الدنيا، ويحبب إليه الموت في سبيل الله، والذي سماه الحديث «الوهن»، وفسره بأنه «**حب الدنيا وكراهية الموت**»(6).

ولا عجب أن يهزم ألف مليون من «غثاء السيل» أمام ثلاثة ملايين من اليهود!!.

من المسؤول؟

ذلكم هو حال أمتنا من الشتات والضياع والغيبة عن الوجود، فمن المسؤول عنه.؟

---

(5) من حديث رواه أحمد وأبو داود عن ثوبان.

(6) المرجع السابق.

ونحن لا نريد تحديد المسئولية هنا عن ضياع أمتنا وتعطيل طاقاتها، لنحاكم المسئولين عنه، محاكمة ثورية أو شعبية، فمهمتنا مهمة الدعاة، لا مهمة القضاة، وما نريد إلا أن نعرف من أين أتينا، حتى نسد موقع الخلل، ونعالج مواضع الداء، ونتقي مكامن الخطر.

مسئولية الحكام:

هل تقع المسئولية على الحكام وأصحاب السلطان؟

إن الأكثرية تميل إلى تحميل الحكام وزر ما نحن فيه، وذلك لجملة أسباب:

الأول: أن الناس عادة يحبون أن يبرئوا أنفسهم ويحملوا المسئولية لغيرهم ولهذا تحب الشعوب أن تحمل عبء تبعتها على عاتق حكامها.

الثاني: أن شعوبنا نحن المسلمين خاصة عانت من حكامها الكثير، فهي تنفس عن نفسها حين تحملهم إثم ما أصابها.

الثالث: أن المسئولية بقدر المكنة والسلطة، والحكام قد مكنوا وسلطوا، ولكنهم لم يكونوا عند حسن الظن بهم، لم يكونوا كما قال الله تعالى: **{ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ}** [الحج: 41].

ولا ريب أن الحكام يحملون قسطًا كبيرًا، وربما القسط الأكبر، مما نحن فيه، ولكن من المؤكد أيضًا أن الحكام في الغالب أشبه بشعوبهم، وهم إفراز مجتمعاتهم، حتى الحكام الذي يُفرضون على شعوبهم، إنما يستمر حكمهم بممالأتها لهم أو على الأقل سكوتها عنهم، وقد ورد: «**كما تكونوا يولى**

عليكم»[7].

مسئولية العلماء:

هل تقع المسئولية على العلماء؛ لأنهم ورثة الأنبياء، ودعاة الحق، وهداة الخلق الذين أخذ الله عليهم الميثاق لَيُبَيِّنُنّ دين الله للناس ولا يكتمونه.

بيد أن من العلماء من قصر في واجب البيان والبلاغ، ومنهم من مشي في ركاب السلطان، وجعل العلم خادمًا للسياسة، وجعل لمن نفسه جهازًا لتفريخ «الفتوى حسب الطلب».

والحقيقة أن علماء اليوم لم يعودوا وحدهم في الميدان كما كانوا في العصور الماضية، فقد غدا الذين يملكون الكلمة المقروءة والمسموعة والمرئية في أجهزة الإعلام أشد تأثيرًا في الجماهير من أصحاب المنابر، وإن كان لكلمة الدين من القوة ما ليس لغيرها.

كما أن مشكلة علماء اليوم أنهم أصبحوا موظفين لدى الحكام، فهم الذين يملكون توليتهم وعزلهم وليسوا كعلماء السلف الذين اشتغلوا بالحرف والتجارة وغيرها ليكفوا أنفسهم بأنفسهم.

ولقد سئل أحد الولاة عن سر قوة الإمام الحسن البصري وشموخه، فقال الوالي في صراحة: احتجنا إلى دينه واستغنى عن دنيانا!!.

---

(7) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» عن أبي بكرة بسند ضعيف، والبيهقي في «الشعب» بإسناد منقطع، ورواه الطبراني بمعناه عن الحسن: أنه سمع رجلًا يدعو على الحجاج، فقال له: لا تفعل. إنكم من أنفسكم أتيتم، إنا نخاف إن مات الحجاج أو عزل، أن يتولى عليكم القردة والخنازير!! فقد روى: إن أعمالكم عمالكم «أي ولاتكم» وكما تكونوا يولى عليكم». انظر: «كشف الخفاء والإلباس» (166/2) حديث (1997).

فماذا يكون الحال إذا احتاج العلماء إلى ما عند الحكام، من دنيا، واستغنى الحكام عما عند العلماء من دين؟!!

على أن من العلماء من أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ولقى في سبيلها من العذاب ما لقى، بل منهم من قدم رقبته في سبيل الله!!

مسئولية الجماهير:

هل تقع المسئولية على الشعب، أي على الجماهير؟

الواقع أن المسئولية مشتركة، تحمل كل الأطراف منها نصيبًا، على قدر ما لديها من إمكانات، فمسئولية العالم أكبر من مسئولية الجاهل، ومسئولية السلطة أكبر من مسئولية من لا سلطان له، ومسئولية ذي المال أكبر من مسئولية من لا مال عنده، وإن كان الكل مسئولًا.

والنبي صصص يحمل المسئولية للجميع كل في موقعه: «**كلكم راع، ولكلكم مسئول عن رعيته**».

والإسلام لا يعرف طبقة خاصة يعتبرهم وحدهم «رجال الدين» المسئولين عنه، بل كل مسلم رجل لدينه، والأمة كلها مسئولة بالتضامن عن فرائض الله وأحكام شريعته، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: **{وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ...}** [التوبة: 71].

ولقد ذكرت مرة أن أحد المستمعين قال لأحد الدعاة بعد محاضرة ألقاها: «قد مضى لكم ثلاثون سنة وأنتم تتكلمون، فماذا صنعتم؟ وكان جواب الداعية مفحمًا حين قال: وأنتم مضى لكم ثلاثون سنة وأنتم تسمعون فماذا صنعتم؟!».

وهذا حق، فإن على المستمع، كما على المتكلم، مسئولية تحويل الكلام إلى عمل، والأفكار إلى وقائع، وإن اختلفت درجة المسئولية.

مسئولية الحركة الإسلامية:

وهنا قد تشير الأصابع إلى الحركة الإسلامية الحديثة، تحملها مسئولية ما تعانيه الأمة المسلمة من التيه والتمزق والضياع، وكان الظن بها أن تقود مسيرتها إلى بر السلامة، وأن تتحقق على يديها الأحلام، وتزول الآلام بعد أن وثقت بها الجماهير الغفيرة، والتفت حولها عشرات الألوف من رهبان الليل وفرسان النهار، وبعد أن مضى عليها من الزمن ما يكفي لنضجها وبلوغها رشدها.

وهنا لا بد من وقفة للمحاسبة مع الحركة الإسلامية.

* * *

وقفة مع الحركة الإسلامية

كان الأمل معقودًا على «الحركة الإسلامية» أن تقود سفينة الأمة الإسلامية إلى الغاية المرجوة على الطريق الصحيح، الموصل إلى شاطئ الأمان، ومعها «البوصلة» الهادية من كتاب الله وسُنَّة رسوله، و«الخريطة» المفصلة من شريعة الإسلام وتراثه الخالد، ولا أعني بـ «الحركة الإسلامية» حركة معينة تكاد تستأثر بهذا الوصف، مثل حركة «الإخوان المسلمين» أُمَّ الحركات الإسلامية الحديثة وكبراها، كما سماها د. إسحاق «موسى الحسيني» في كتابه الذي كتبه عنها منذ أكثر من ثلث قرن، وإنما أعني بالحركة الإسلامية بالخصوص: مجموع العمل الإسلامي الجماعي الشعبي المحتسب، المنبثق عن ضمير الأمة، والمعبر بصدق عن شخصيتها وآلامها وآمالها، وعقائدها وأفكارها، وقيمها الثابتة، وطموحاتها المتجددة وسعيها إلى الوحدة تحت راية العقيدة منذ هدمت قلعة «الخلافة».

ويدخل في هذا الإطار كل الجماعات العاملة لتجديد الدين، وتحكيم شريعته وإحياء الأمة به، والعودة به إلى مكانة الطبيعي والتاريخي في قيادة المجتمع وتطبيقه في كل مجالات الحياة: اعتقادًا وتعبدًا، وخلقًا وسلوكًا، وفكرًا وشعورًا، وتشريعًا وتوجيهًا، وقضاءً وتنفيذًا.

ولكن الحركة الإسلامية لم تستطع أن تصل بالسفينة إلى الشاطئ المأمول والمأمون، وتحقق كل الآمال الكبيرة المعقودة عليها، والتي رجاها الناس منها ورجتها هي من نفسها.

وكثـرة الكـلام حـول هـذا الإخفـاق وأسـبابه، مـن أبنـاء الحركـة، ومـن خصومها: أهي أسباب من خارج الحركة؟ كالذي يصيب السفينة في عرض البحر من أعاصير أو صخور أو تيارات أو قراصنة مسلحين، أو غواصات معادية، أو غير ذلك من العوارض التي تفوق قدراتها وتعترض سيرها، وتجعلها تغير طريقها، وقد تحدث فيها من الأضرار ما لم يكن في الحسبان، وقد تؤدي بها نبربانها وملاحيها وركابها - كلهم أو بعضهم - إذا لم يقدر الله لها النجاة.

أم هي أسباب ذاتية من داخل الحركة نفسها؟ على معنى أن العيب في السفينة ذاتها، حيث لم تعد إعدادًا كافيًا لملاقاة الأنواء والعواصف عند اللزوم، أو العيب في الربان؟ أو الملاحين الذين مالوا بها في طريق الصخور أو التيارات الخطرة، ولم يقدروا هذا الاحتمالات حق قدرها؟

لعل الإنصاف ودراسة الواقع عن كثب يقولان: إن الأمرين معًا قد وجدوا الأسباب الخارجية، والأسباب الداخلية.

ولا يجوز لنا إذا أرّخنا للحركة أو نقدناها أن نهمل أحدهما أو نضخمه على حساب الآخر، ونحن في هذه القضية - كما في غيرها - نقع بين طرفي الإفراط والتفريط.

فمنا من ينكر أي تأثير خارجي، ويرى أن هذه تخيلات وأوهام، كتخيلات العرب قديمًا للغول والعنقاء! حتى قال لي صديق يومًا: ليس هناك شيء اسمه «الصليبية» التي تصورونها، وإنما هناك مصالح - فقط - توجه الناس. وهو قول يكذبه ما لا يُحصى من الوقائع والوثائق.

وفي مقابل هؤلاء من يحصر الأسباب كلها في التدخلات الخارجية وتأثيرها على السلطات الحاكمة في الداخل. ويبالغ هذا الصنف أحيانًا في تضخيم دور هذه القوى الخارجية حتى تكاد تحسبها القدر الأعلى الذي له الخلق والأمر، وأن كل القادة والسياسيين الذين نراهم يحكمون ويأمرون إنما هم «عرائس» تحركها أصابع خفية بخيوط غير منظورة، أو هم بعبارة أخرى: أحجار على رقعة الشطرنج، وفي النهاية: لا عيب في الحركة ولا عليها، وليس عليها أن تحاسب نفسها أو تراجع خططها وسياستها.

والاعتدال بين الفريقين هنا هو الأولى، بل هو الموقف الصحيح الذي يوجبه العلم والعدل.

مدى مسئولية الحركة:

وأعتقد أن من غير العدل أن تحمل الحركة الإسلامية مسئولية كل ما عليه مسلمو اليوم من ضياع وتمزق وتخلف، هو حصيلة عصور الجمود، وعهود الاستعمار وعهود الحكم العلماني بعد الاستقلال.

الحركة الإسلامية عليها، ولا شك قدر من المسئولية يوازي ما لديها من أسباب وإمكانات مادية ومعنوية هيأها الله لها، استخدمت بعضها، وأهملت بعضًا آخر، وأساءت استعمال بعض ثالث.

ولكن الحركة الإسلامية لها بعض من العذر - قد يقل وقد يكثر - فيما قصرت فيه أو قصرت عنه، وأخفقت في تحقيقه.

الحركة الإسلامية ليست هي العامل الوحيد ولا العامل الأقوى المؤثر في سير الأحداث في الأُمة الإسلامية، إنها تيار من تيارات، وحركة من

الحركات.

وهي حركة تقاومها قوى الطغيان الخائفة من الإسلام في الداخل، وقوى الاستعمار الكارهة للإسلام في الخارج، وهي نتيجة لذلك لا تكاد تخرج من محنة إلا دخلت في محنة، وقبل أن تندمل جراحها تصاب بجراح جديدة.

على أنه لا ينبغي أن نجعل النجاح والإخفاق هما مقياس الصواب والخطأ، ومعيار الحق والباطل، فمن نجح فهو مصيب، ومن أخفق فهو مخطئ، فهذا مقياس مردود يرده الدين والمنطق والتاريخ والواقع، فالحركات الإسلامية قبل كل شيء هي دعوة للناس أن يقوّموا العوج، ويصلحوا الفساد، ويتداركوا ما ضاع.

وصاحب الدعوة قد ينجح، وقد يخفق، قد يجد الاستجابة، وقد لا يجد إلا الرفض وهذا نبي الله نوح يبذل أقصى ما عنده في دعوة قومه، بمختلف الأساليب، وفي مختلف الأوقات، فلا يجد إلا الصدود والإعراض حتى لدى أقرب الناس إليه: زوجه وابنه: **{قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا 5 فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا 6 وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا}** [نوح: 5 - 7].

والمؤمنون الذين ذكرهم الله في سورة البروج قد ضحوا بأنفسهم في سبيل الله، ولم يحققوا في حياتهم نجاحًا لدعوتهم.

كذلك ذكر القرآن أن من رسل الله من لقوا حتفهم وظفروا بالشهادة على أيدي أعدائهم: **{فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ}** [البقرة: 87].

وليس معنى هذا أن الحركة الإسلامية مبرأة من كل مأخذ، أو أنها فوق

النقد والنصح، كما يتوهم بعض المخلصين من أتباع الحركة، حيث يخلط بين الحركة الإسلامية والإسلام ذاته. فنقد الحركة يعني لديه نقد الإسلام. كما يصنع هذا بالفعل بعض العلمانيين الذين ينقدون الحركة، فينقدون الإسلام وأحكامه وشرائعه.

إن الحركة الإسلامية ليست إلا حركة بشر يجتهدون لنصرة الإسلام وتحقيق رسالته في الحياة، ويتخذون من الوسائل كل ما يرون أنه أقرب إلى تحقيق أهدافهم في خدمة دينهم، ولم يدعوا أن اجتهادهم هذا وحي لا يقبل المناقشة، كما لم يزعموا أن أحدًا منهم يؤخذ منه ويرد عليه.

ولهذا كان علينا أن نبحث داخل جسم الحركة عن الأسباب الذاتية التي عاقتها عن بلوغ غاياتها في إقامة المجتمع الإسلامي المنشود واستئناف الحياة الإسلامية القائمة على عقيدة الإسلام وشريعته. وأجتزئ هنا بجملة من الأسباب البارزة:

أولًا: ضعف النقد الذاتي:

أول ما يشكو منه ذوو البصائر داخل الحركة الإسلامية بمعناها الواسع أن النقد الذاتي فيها ضعف إن لم يكن غائبًا في بعض الأحيان.

والنقد الذاتي بتعبيرنا الإسلامي هو محاسبة النفس، وهو شأن «النفس اللوامة» التي نوه بها القرآن، وجاء في الحديث: «**الكيس من دان نفسه**»[8] أي حاسبها.

وقال عمر: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحَاسَبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن

---

(8) رواه أحمد والترمذي وحسنه، وابن ماجه والحاكم وصحَّحه وخالفه الذهبي.

عليكم».

وقال بعض السلف: المؤمن أشد حسابًا لنفسه من سلطان غاشم، ومن شريك شحيح.

وكما أن على الفرد أن يحاسب نفسه على تفريطه في جنب الله، أو تقصيره في حقوق الناس، محاولًا أن يجعل يومه خيرًا من أمسه، وغده خيرًا من يومه، فإن على الجماعة أن تحاسب نفسها كذلك.

والله قد عصم هذه الأمة أن تجتمع على ضلالة، ولكنه لم يعصم أي جماعة منها أن تخطئ أو تضل، وخصوصًا في القضايا الاجتهادية التي تتعدد فيها وجهات النظر، وتعتبر المواقف فيها قابلة للصواب والخطأ.

والخطأ إذا كان عن اجتهاد فصاحبه مأجور عليه، فردًا كان أو جماعة. ولكن الاجتهاد في مجال العمل كالاجتهاد في مجال الفتوى، يتغير بتغير الزمان والمكان والحال.

والخطأ يمكن أن ينشأ عن الضعف البشري وهو لا ينافي الإيمان أو التقوى، لأنه من لوازم البشرية وكل بني آدم خطَّاء، وقد زلقت إليه أقدام من هم أكمل منا إيمانًا، وأرجح عند الله ميزانًا، وهم أصحاب رسول الله صصصص وهو ما سجله عليهم القرآن الكريم في غزوة أُحُد بقوله: **{أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ}**[آل عمران: 165]. وقد علق القرآن على بعض مظاهر الضعف التي بدت منهم فقال: **{وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم**

مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ [آل عمران: 152].

وقال بعض الصحابة: «ما كنت أعرف أن فينا من يريد الدنيا حتى نزلت هذه الآية».

وينبغي للحركة الإسلامية أن تقف بين الحين والحين مع نفسها للتقويم والمراجعة، وأن تشجع أبناءها على تقديم النصح وإن كان مرًا، والنقد وإن كان موجعًا، كما كان عمر ررر يقول: «رحم الله امرءًا أهدى إليّ عيوب نفسي».

والحركة الإسلامية ليست ملك نفسها، وإنما هي ملك الأمة الإسلامية كلها، وملك الأجيال الإسلامية القادمة أيضًا، فمن حقها أن تعرف ما في هذه الحركة من مواضع القوة، وما يؤخذ عليها من نقاط الضعف، لتأخذ منها العبرة.

بعض المخلصين من أتباع الحركة الإسلامية يخافون من فتح باب النقد الذاتي أن يلجه من يحسنه ومن لا يحسنه، فقد يفسد أكثر مما يصلح.

وهذا هو نفس العذر الذي جعل بعض العلماء قديمًا يتواصون بسد باب الاجتهاد حتى لا يدخل منه الأدعياء والمتطفلون، فيقولوا على الله ما لا يعلمون، ويفتوا بغير علم، فيَضِلُّوا وَيُضَلُّوا.

والواجب هنا وهناك أن يفتح الباب لأهله القادرين عليه، ولا يبقى في النهاية إلا النافع، ولا يصح إلا الصحيح: **{فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ}** [الرعد: 17].

ويخافون كذلك أن يصور النقد لأفكار بعض قادة الحركات الإسلامية

بصورة الاتهام لهم، أو الوقوف مع خصومهم ضدهم، فمن نقد رأيًا لمثل «حسن البنا» أو «أبي الأعلى المودودي» أو «سيد قطب»، أو «مصطفى السباعي»، أو غيرهم من القادة الفكريين والحركيين، فكأنه يوجه اتهامًا إلى هؤلاء، أو يطعن في إمامتهم وبطولتهم.

مع أن نقد الفكر - سواء كان علميًا أم حركيًا - لا يعني بحال النيل من مكانة صاحبه علميًا أو دينيًا أو خلقيًا.

على أن فكر هؤلاء لم يعد ملكًا لهم، بل هو ملك الأجيال المسلمة، فمن حقها، بل من واجبها - أن تعرف ما فيه من مواطن الإجماع والخلاف، والقرب من الصواب أو البعد عنه.

وأصحاب هذه الأفكار والمناهج لم يزعموا يومًا لأنفسهم العصمة، ولم يضفوا على آرائهم واجتهاداتهم أي لون من القداسة، بل أكد «حسن البنا» في «الأصول العشرين» أن كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا النبي صصص.

وسيد قطب غيّر من مواقفه الفكرية خلال مراحل حياته الحافلة، وانتقل من مجرد أديب ناقد مبهور ببلاغة القرآن «مرحلة التصوير الفني، ومشاهد القيامة في القرآن» إلى كاتب إسلامي يدعو إلى عدالة الإسلام ونظامه للحياة «مرحلة العدالة الاجتماعية والسلام العالمي في الإسلام»، ثم إلى داعية حركي له أفكاره الخاصة في منهج التغيير والنظرة إلى المجتمع، والدعوة إلى العقيدة بدل الدعوة إلى النظام «مرحلة المعالم، والطبعة الثانية من «الظلال»». وقد ذكر هو ذلك عن نفسه لبعض تلاميذه. فقال له أحدهم: إذن أنت لك مذهبان: قديم وجديد كالشافعي، فقال له: نعم: ولكن الشافعي غير في

الفروع، وأنا غيرت في الأصول[9]!!

ومن يدري لعل البحث الناقد يجد أن مذهبه القديم - في بعض القضايا على الأقل - أدنى إلى الصواب من مذهبه الجديد.

والمودودي رحب بنقد السيد «أبي الحسن الندوي» في بعض ما كتبه، ولم يضق به ذرعًا، كما ضاق أتباعه بذلك.

ويخافون كذلك أن يستغل خصوم الحركة هذا النقد الذاتي للتشويش على الحركة ورجالها، فهم يجمعون نقاط الضعف، ويعرضونها من وجهة نظرهم، مكبرة مضخمة، غير منسوبة إلى محيطها وظروفها ودوافعها.

وقد لمست بنفس هذا في بعض ما كتبته في كتابي «الحل الإسلامي» عن عوائق الحركة الإسلامية من داخلها، فأخذها بعض ذوي النزعة اليسارية، فقدم فيها وأخر، وحذف واختصر، وقدمها على طريقة الشاعر السكير الذي قال:

ما قال ربك: وَيْلٌ للألي سكروا   بل قال ربك: وَيْلٌ للمُصَلِّيْنَا!

ورغم هذا لا يجوز أن يكون مثل هذا الاستغلال أو التحريف مانعًا من النقد العلمي المخلص، فإن كلمة الحق لا ينبغي أن تختفي خشية من كلمة الباطل، وقد حرف الناس كلمات الله عن مواضعها، ولكنها بقيت مضيئة هادية، وكلامنا نحن البشر ليس أولى بالحفظ من كلام الله.

(9) ذكر ذلك الدكتور محمد المهدي البدري في مقال له بمجلة «الدعوة» نقلًا عن بعض ثقات تلاميذه داخل المعتقل.

ثانيًا: الانقسام والاختلاف:

ومن آفات الحركة الإسلامية المعاصرة هذا الانقسام أو التمزق الذي نشهده بين فصائلها وجماعاتها المتعددة، فكل جماعة منها ترى نفسها وحدها جماعة المسلمين لا جماعة من المسلمين، وأن معها الحق كله، وليس بعدها إلا الضلال وأن دخول الجنة والنجاة من النار حكر على من اتبعها، وأنها وحدها «الفرقة الناجية» ومن عداها من الهالكين!!

ومن لم يقل ذلك منهم بلسان المقال، قاله بلسان الحال، وكأن عدوى التمزق في محيط الأمة، انتقلت إلى محيط الحركة، وهو ما يشكو منه المخلصون الغيورون على نجاح العمل الإسلامي، وعلى استقامة طريقه، وهي شكوى ستطول إذا ظل هذا الموقف الفكري لهذه الجماعات على هذا النحو، الذي يقطع الطريق على أي تقارب حقيقي يؤلف بينها.

وأنا أقول: تقارب، ولا أقول: وحدة. لأني لا أنكر تعدد الجماعات العاملة للإسلام، ولا أطمع أن ينضوي الجميع في جماعة واحدة، يضمها تنظيم واحد، تحت قيادة واحدة، فهذا حلم جميل، ولكن دون تحقيقه صعوبات لا يسهل تذليلها، إلا أن ينقلب البشر إلى ملائكة أولي أجنحة.

ولا مانع من التعدد إذا كان تعدد تنوع وتخصص، لا تعدد تضاد وتناقض.

فجماعة تتخصص في تحرير العقيدة من الخرافة والشرك. وتصحيح عقائد المسلمين وفق الكتاب والسُّنَّة.

وأخرى تتخصص في تصحيح العبادات وتطهيرها من البدع والشوائب وتفقيه الناس في دينهم.

وثالثة تعني بمشكلات الأسرة والمرأة، والدعوة إلى الحجاب الشرعي، ومقاومة التبرج والانحلال.

ورابعة تعني بالعمل السياسي، وخوض معارك الانتخابات والوقوف في وجه الأحزاب العلمانية.

وخامسة تهتم بالعمل التربوي أو العمل الاجتماعي وتبذل فيه جهدها ووقتها.

وسادسة تعمل في هذه الميادين كلها، أو في مجموعة منها، حسبما يتيسر لها.

يمكن أن تعمل بعض الجماعات مع الجماهير، وبعضها الآخر مع المثقفين.

يخاطب الأولون العواطف، ويستثيرون مشاعر الإيمان، على حين يخاطب الآخرون العقول والأفكار، وبخاصة عقول أولئك المغزوين للثقافة الغربية بشقيها: الليبرالي والاشتراكي.

وهكذا تتنوع الجماعات، ويتنوع عملها وفق اهتمامها وما ندبت نفسها لخدمته، ومن تفرغ لشيء تحسنه.

وإن من أسباب الفرقة أحيانًا الحرص البالغ على الوحدة: وحدة العاملين للإسلام، أو ما سمي بـ «حركة إسلامية عالمية واحدة»، فمن أداه اجتهاده إلى أسلوب مغاير في العمل، أو الحركة، اتهم بالانشقاق أو بالخروج على الصف، أو تمزيق الوحدة أو غير ذلك من التهم التي لا يترتب عليها إلا المزيد من الفرقة في الصفوف، وتباعد القلوب، وبهذا تكون المبالغة في

الحرص على الوحدة سببًا إلى الفرقة.

وأولى من ذلك الاعتراف بتعدد الاجتهادات وتنوع الأساليب بناءً على تعدد زوايا الرؤية، والاختلاف في ترتيب الأهداف، وفاعلية الوسائل، وتقدير الأولويات، ومدى المعينات والعوائق إلى غير ذلك، مما يتغير فيه الاجتهاد أو الفتوى بتغير الزمان والمكان والحال والملابسات. ولكل مجتهد نصيب، ولكل امرئ ما نوى.

هذا شيء حسن ونافع، على شرط أن يحسن الجميع الظن بعضهم ببعض، وأن يتسامحوا في مواضع الخلاف، وأن يتعاونوا ويتناصحوا فيما بينهم بالمعروف، وأن يقفلوا صفًا واحدًا في القضايا الكبرى، قضايا الوجود الإسلامي والمصير الإسلامي، وأن يحاربوا في جبهة واحدة العدو المشرك، مثل اليهودية والصليبية والشيوعية والعلمانية، وأن يذكروا قول الله تعالى: **{إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ}** [الصف: 4].

ومن الواجب على قادة الحركة الإسلامية اليوم أن يحاولوا التقريب بين الجماعات الإسلامية العاملة للإسلام، والتي يتحمس لكل منها جماعات من الشباب المثقف في البلاد العربية[10] وأخص بالذكر هنا.

ششثا جماعة الإخوان المسلمين.

ششثا جماعة السلفيين.

---

(10) وفي غير البلاد العربية توجد: «الجماعة الإسلامية في باكستان والهند، وحزب السلامة وجماعة النورسيين في تركيا، وجماعة الشباب المسلمين والحزب الإسلامي في ماليزيا» وغيرها.

ششثا جماعة الجهاد.

ششثا حزب التحرير الإسلامي.

ششثا جماعة التبليغ.

فينبغي أن يدعو المفكرون والمنظرون لهذه الجماعات إلى ندوات أو حلقات دراسية مهمتها: إبراز مواضع الاتفاق التي يجب التعاون فيها، وتقريب شقة الخلاف في مواضع الاختلاف التي يسع كل مخالف فيها صاحبه، وتخفيف حدة الجدل في الجزئيات التي لا يطمع عاقل في إنهائها، وتحسين الظن بالآخرين فيما لا يوافقون فيه من الرأي أو العمل ... والخروج من هذه الدراسة بورقة عمل أو وثيقة شرف، يمكن أن يلتقي الجميع عليها، ويقفوا صفًا واحدًا في المعركة الواحدة ضد أعداء الإسلام وما أكثر عددهم، وأقوى عدتهم، وما أعظم كيدهم.

ومن الخطأ في رأيي - محاولة تضخيم الفروق، وتوسيع الهوة بين هذه الجماعات، وكلها تعمل في الدعوة إلى الله، بل الواجب تضييق الفجوة وإزالة الجفوة ما وجد إلى ذلك سبيل.

وأعتقد أن «الأصول العشرين» التي وضعها الإمام الشهيد «حسن البنا»، وجعلها أساسًا لوحدة الفهم عند العاملين للإسلام، والتي كان قد قدمها في الأصل لاتحاد الجماعات الدينية في مصر، لتلتقي عليها، بد ل الفرقة وتبادل الاتهامات ... والتي صاغها صياغة فيها كثير من الحكمة والأعتدال ... هذه الأصول يمكن أن تكون مرتكزًا للقاء فكري مشترك بين الجماعات المذكورة، إذا صدقت النيات، هذا إلى جوار «قاعدة المنار الذهبية» الشهيرة

التي تقول: نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه.

ولم أر مثل الشهيد «البنا» في حرصه على التأليف بين الجماعات العاملة للإسلام وإلحاحه على ذلك في شتَّى المناسبات، واتخاذه كذلك أرفق الأساليب للوصول إلى القلوب، يقول في «رسالة المؤتمر السادس»:

«وأما موقفنا من الهيئات الإسلامية جميعًا على اختلاف نزعاتها، فموقف حب وإخاء وتعاون وولاء، نحبها ونعاونها، ونحاول جاهدين أن نقرب بين وجهات النظر ونوفق بين مختلف الفكر توفيقًا ينتصر به الحق في ظل التعاون والحب، ولا يباعد بيننا وبينها رأي فقهي أو خلاف مذهبي، فدين الله يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، ولقد وفقنا الله إلى خطة مثلى، إذ نتحرى الحق في أسلوب لين، يستهوي القلوب، وتطمئن إليه العقول، ونعتقد أنه سيأتي اليوم الذي تزول فيه الأسماء والألقاب والفوارق الشكلية، والحواجز النظرية وتحل محلها وحدة عملية، تجمع صفوف الكتيبة المحمدية، حيث لا يكون هناك إلا إخوة مسلمون، للدين عاملون، وفي سبيل الله مجاهدون: **{وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ}** [المائدة: 56]». اهـ.

ولا ينبغي للحركة الإسلامية أن تهمل الشخصيات القوية العاملة في ميدان الدعوة إلى الإسلام، فهي - وأن كانت تعمل منفردة - لها تأثيرها في محيطها وتلامذتها. ولكل منهم مدرسته ومريدوه.

ولا ريب أن منهم الصادقين المخلصين الذي يستطيعون أن يحركوا الرأي العام، ويوجهوه، إن صح منهم العزم، وصدق الاتجاه.

ودعوتنا إلى العمل الجماعي المنظم المخطط لا يعني أن نلغي اعتبار من

يعملون خارج الأطر الجماعية، فقد يكون لأحدهم من الأعذار أو الموانع المادية أو المعنوية ما يعوقه عن العمل الجماعي النظامي. وإن كان الواجب عليه أن يكون بفكره وقلبه وجهده عونًا لكل عمل جماعي ملتزم بشريعة الإسلام، ولو لم يكن عضوًا رسميًا فيه.

ومثل ذلك بعض الشخصيات النظيفة المخلصة لدعوة الإسلام التي تعمل في بعض المجالات الرسمية كوزارات الأوقاف والشئون الدينية، والمجامع والجماعات الإسلامية ونحوها، فلا يحسن تجاهلها لمجرد ارتباطها الحكومي، فقد تستطيع بما لديها من أجهزة ومؤسسات تقديم خدمات جليلة للعلم الإسلامي.

ثالثًا: غلبة الاتجاه العاطفي على الاتجاه العقلي والعلمي:

ومن آفات الحركة الإسلامية غلبة الناحية العاطفية على الناحية العقلية العلمية.

أهمية العاطفة في الحركة الإسلامية:

ولا أريد بهذا إلغاء الجانب العاطفي من الحركة بحيث تقوم على «العقلانية» الخالصة، بعدًا عن أي تأثير للمشاعر. فهذا مخالف لطبيعة الحركة، بل لطبيعة الإسلام.

فالإسلام - مع احترامه للعقل ودعوته للنظر والفكر - ليس مجرد فلسفة عقلية منطقية جامدة، إنه يشتمل على جانب عاطفي في تعاليمه لا ينكره أحد، مثل الحب في الله والبغض في الله، والفرح بتوفيق الله، والحزن على معصية الله، والخوف والرجاء. وغيرها من «الأحوال» النفسية التي عنى بها

وفصلها أهل التصوف في كتبهم، كما ترى ذلك واضحًا في مثل «منازل السائرين» للهروي، وشرحه «مدارج السالكين» لابن القيم، وغيرهما من كتب القوم.

فهذا جانب لا خلاف عليه، ولا جدال فيه، لأن الإسلام جاء يخاطب في الإسلام عقله وقلبه معًا، ولهذا ذم الذين لا يعقلون ولا يفقهون، كما ذم الذين لا تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق، فلهذا كان اهتمامه بالجانب العقلي والعاطفي معًا، وحسبنا هنا الحديث المتفق عليه:

«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله. وأن يكره أن يعود في الكفر - بعد إذ أنقذه الله منه - كما يكره أن يقذف في النار».

وطبيعة الحركة الإسلامية أنها تعتبر إحياء المشاعر الإيمانية، وإلهاب العواطف الإسلامية جزءًا من رسالتها، التي هي رسالة الإسلام.

وهذا الجانب لا بد منه للحركة لتوفير قدر من الحماسة يدفع إلى العمل وإلى البذل، وكذلك لربط القلوب برباط المحبة والأخوة التي قد ترتقي فتصل إلى درجة الإيثار.

والجماعة المسلمة المرجوة لنصرة الإسلام، كما تقوم على وحدة المفاهيم ووحدة التنظيم، تقوم على وحدة المشاعر، وبعبارة أخرى، على تآلف القلوب، وارتباطها بعروة الحب في الله، وهو ما مَنّ على رسوله بقوله: **{هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ 62 وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ}** [الأنفال: 62، 63].

وكـان الشـهيد «حسـن البنـا» فـي أحاديثـه الأسـبوعية - أحاديـث الثلاثـاء - حريصًـا علـى أن يبدأها دائمًـا بإحيـاء القلـوب بالإيمـان والحـب. وهـو مـا كـان يسميه «عاطفة الثلاثاء».

ولـهذا جعل «الأخـوة» مـن أركـان البيعـة، وكـان مـن كلماتـه المـأثورة: إن دعوتنا تقوم على دائم ثلاث: الفهم الدقيق، والإيمان العميق، والحب الوثيق.

هذا ما كان العاطفة في تعاليم الإسلام: وفي الحركة الإسلامية.

ماذا نريد بغلبة العاطفية؟

إذن ما الذي نقصده هنا؟

الذي نقصده: أن تغدو العواطف والانفعالات هي الحاكمة علـى التصـرفات والعلاقات والغالبة على التفكير والسلوك، والمواجهة لأحكامنـا علـى الأعمـال والأقوال والمواقف والأشخاص والهيئات، وبهذا تصبح العاطفة فوق العقل، والهوى قبل العلم.

وهـذا الاتجـاه الجـانح إلـى تغليـب العاطفـة علـى العقـل والعلـم لـه دلائـل ومظاهر عدة، أذكر منها ثلاثة:

1- قصور الدراسة والتخطيط:

فـرغم إن الإسـلام يـدعو إلـى العقـل والعلـم، ويحـث المسـلم علـى احتـرام الأسـباب، ومراعـاة السـنن وأخـذ الحـذر، والإعـداد للغـد - نـرى الحركـة الإسلامية ضعيفة الاهتمام بهذا الجانب.

وقد ذكرت يومًا أمام داعية كبير ضرورة التخطيط القائم علـى الإحصـاء

ودراسة الواقع، فكان جوابه: «هل تحتاج الدعوة إلى الله، وتذكير الناس بالإسلام، إلى تخطيط وإحصاء؟!».

هذا مع أن النبي صصص بعد هجرته إلى المدينة طلب إحصاء بعدد من يلفظ بالإسلام، فأحصوا فكانوا: ألفًا وخمسمائة. كما روى ذلك البخاري ومسلم.

وهذا يدل على أن الرسول الكريم ـ أراد أن يعرف مدى القوة البشرية لديه معرفة علمية دقيقة، ليكون تقديره ومواقفه مبنية على دراية وبينة.

لا بد إذن من دراسة واقع الأمة الإسلامية، وواقع الحركة الإسلامية، وواقع القوى المعادية للإسلام، وجمع البيانات والمعلومات اللازمة عنها جميعًا، وتحليلها من منظور علمي موضوعي، والخروج بالنتائج اللازمة لتوضع موضع التنفيذ إثباتًا أو نفيًا.

ولا زال بعض المنتسبين للعمل الإسلامي يضيقون بما يدعو إليه البعض من ضرورة «الدراسة» أولًا. وغدت كلمة «الدراسة» لأي فكرة أو مشروع تعني عندهم «التسويف» وهو يعني «التمويت» بالقتل البطيء!!

وكان لنا صديق يقول إذا طالبنا بالدراسة والبحث على غرار ما يفعله الاقتصاديون فيما يسمونه «دراسة الجدوى» قال: الدراسة تأتي بعد. المهم أن نبدأ العمل ونمضي ولا نقف ساكنين. أن أؤمن بالأعمال الناقصة! لنبدأ العمل ناقصًا أو خاطئًا، ثم يأتي غيرنا فيكمل النقص، ويصحح الخطأ.

وهذه فلسفة لها دوافعها ومبرراتها. ولكن الذي أكدته التجارب أن ترقيع العمل المغلوط، أو تقويم المشروع الأعوج، أصعب بكثير من بدئه من الألف

بداية صحيحة.

وقد يبذل المخلصون جهودًا مضنية في الترقيع والتصحيح والتقويم ثم لا تؤتي أكلها، وقد تحقق بعض النتائج، ولكن بعض الأمور تستعصي على الإصلاح، لأنها بدأت من أول الأمر غير صحيحة ولا مستقيمة.

ومن أهم ما ينبغي التخطيط له: توجيه المواهب الشابة إلى التخصص على أعلى المستويات في كل مجالات الحياة: علمية وشرعية وسياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وتربوية وإعلامية وإدارية وتخطيطية وغيرها، من كل ما يسد الثغرات ويلبي الحاجات، في مجتمع متحضر معاصر، في عالم «الكمبيوتر» والأسلحة النووية وغزو الفضاء، والهندسة البيولوجية ... عالم يضيف كل يوم جديدًا بما يشبه الوثبات في العلم والتكنولوجيا، والمسلمون يتصارعون فيما بينهم، أو يلهون والدنيا تجد، أو يلوكون ألسنتهم بما لا يفيد.

فلا بد من التخصص الذي يعتبر في نظر الشريعة من فروض الكفايات الواجبة على الأمة مجتمعة، ولا يجوز أن تتكدس القدرات والكفايات في مجال، على حين يغفل مجال آخر، يحتاج إلى من يقوم به فلا يجد.

وقد عاب القرآن الكريم على المسلمين في عصر النبوة أن يتجهوا كلهم إلى الجهاد، على ماله من منزلة وفضل، غافلين عن ميدان آخر لا يقل عنه أهمية، وهو الفقه في الدين، يقول تعالى: **{وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ}** [التوبة: 122].

ونظرًا لأننا نرتجل، وخصومنا يخططون، نراهم يسرقون ثمرات كفاحنا

الإسلامي ونحن غافلون.

إن حركات التحرير ضد الاستعمار كله: الغربي والشرقي والصهيوني كان محركها ومطلق شرارتها، ومفجر طاقاتها، وقائد كتائبها، هو الإسلام، وهذا باعتراف المراقبين المحايدين، والمؤرخين المنصفين، من الشرق ومن الغرب.

ولكن الذي يؤسف له: إن الإسلام يزرع ولا يحصد، ويغرس ولا يجني، بل نرى آخرين من العلمانيين والحاقدين والكائدين في الخفاء من أعداء الإسلام يقفون متفرجون أو متربصون، حتى إذا تهيأت الثمرة للنضج، وثبوا فجأة إلى مقدمة صفوف الجهاد والنضال وأحدثوا دويًا هائلًا، وفرقعة ضخمة تجذب إليهم الأسماع والأبصار والقلوب، لينفردوا هم بالغنيمة، ويقطفوا وحدهم الثمرة: ثمرة النصر.

وكثيرًا ما نراهم يلبسون لبوس الإسلام، ويتحدثون باسمه وأفئدتهم منه هواء، وحياتهم غريبة عنه كل الغربة، فتخدع الشعوب المسلمة الطيبة بمظهرهم وقولهم، وتحسب أنهم على شيء، حتى إذا تمكنوا وأمسكوا بالزمام أعلنوا عن هويتهم، وتبرأوا من الإسلام الذي وصلوا باسمه وبقوته إلى هذه النتيجة.

وهذا ما حدث بوضوح مع كمال أتاتورك، الذي قاد الشعب التركي باسم الإسلام وتحت لوائه، فبذل الشعب من دمه ونفسه وماله راضيًا حتى انتصر، وهلل الناس في أنحاء العالم الإسلامي وكبروا لـ «الغازي» مصطفى كمال كما كانوا يلقبونه، وقال شوقي فيه قصيدته الشهيرة:

الله أكبر كم في الفتح من عجب! يا «خالد» الترك جدد «خالد» العرب!

ولم يكد الناس يفرحون بالنصر، حتى انقلب العرس إلى مأتم، وإذا «الغازي» الذي ظنه الناس سيفًا مسلولًا للإسلام يصبح خنجرًا مسمومًا في ظهره أو صدره. وإذا هو يوجه معوله لهدم «الخلافة» وهدم الإسلام كله معها، وإلغاء وجوده الاجتماعي من حياة الشعب التركي المسلم.

وكانت صدمة فاجعة للعالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه، عبر عنها أمير الشعراء شوقي في رائعته التي رثى بها الخلافة:

عادت أغاني العرس رجع نوح ونعيت بين معالم الأفراح

كفنت في يوم الزفاف بثوبه ودُفِنت عند تبلج الإصباح!!

2 - العجلة:

وهي من آثار غلبة العاطفة والانفعال على منطق العقل والعلم والتخطيط.

فالمستعجل لا صبر له ولا أناة عنده، فهو يريد أن يزرع اليوم ليحصد غدًا، بل يريد أن يغرس في الصباح ليجني في المساء، وهذامخالف لسنن الله تعالى في الكون وفي الاجتماع البشري. فكل شيء له أجله المسمى وأطواره المعلومة.

إن الله خلق العالم في ستة أيام، وكان قادرًا أن يقول له: كن فيكون ... ولكن أراد الله أن يعلمنا الأناة.

وكان قادرًا أن ينصر نوحًا سسس والذين آمنوا معه من أول الأمر ولكنه تركه يدعو ليلًا ونهارًا، وسرًا وجهارًا، ألف سنة إلا خمسن عامًا، ثم نجاه بسفينة يصنعها بيديه، ولم تنزل له من السماء.

وكان قادرًا أن ينصر رسوله محمدًا صصص ويهلك أعداءه بعذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم، منذ فجر الدعوة، ولا يعرضه هو وأصحابه للابتلاء والفتنة.

بل إنه لم يأذن لهم بالجهاد والدفاع عن أنفسهم أمام القوة الطاغية وقال لهم: كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة، حتى غدت لهم شوكة ودار، فأذن لهم بالقتال، وإن الله على نصرهم لقدير.

ولا غرو أن أمر الله رسوله والمؤمنين معه بالصبر وعدم الاستعجال حتى يقضي الله أمره.

{فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ} [الأحقاف: 35].

{فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ} [الروم: 60].

{وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ} [النحل: 127].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ} [آل عمران: 200].

إن الاستعجال جعل الحركة الإسلامية تخوض معارك قبل أوانها، وتخوض أخرى أكبر من طاقتها، وتحارب الشرق والغرب مرة واحدة، وتدخل نفسها مداخل لا تستطيع الخروج منها. مع أن الله لم يكلفنا إلا وسعنا، ولا يحل لنا أن نكلف أنفسنا من البلاء ما لا نطيق، فنعرضها للفتنة. وقد قال

تعالى: **{فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ}** [التغابن: 16]. وقال رسوله: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**»، وقال: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**» - فجعل التغيير درجات، ورتبها حسب الاستطاعة، ولا جناح على المسلم إذا بذل ما يستطيعه وترك ما لا يستطيع.

وقد ذم الله ورسوله العجلة، لما توارثه من سوء العاقبة.

وحسبنا من إشارات القرآن التي لها دلالتها في بيان سوء مغبة العجلة وإن دفع إليها أنبل الغايات - قوله تعالى: **{وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ 83 قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ 84 قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ}** [طه: 83 - 85].

يقول العلامة الألوسي في «تفسيره»: «والفاء» - في قوله: **{فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا}** - لتعليل ما يُفهِمه الكلام السابق، كأنه قيل: لا ينبغي عجلتك عن قومك، وتقدمك عليهم، وإهمال أمرهم، لوجه من الوجوه، فإنهم لحداثة عهدهم باتباعك، ومزيد بلاهتهم وحماقتهم، بمكان يحيق فيه مكر الشيطان، ويتمكن من إضلالهم[11] ...

ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا لما أحدثوه بعده، وأخذ برأس أخيه هارون يجره إليه: **{قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ 92 أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي 93 قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي}** [طه: 92 - 94].

---

(11) «روح المعاني» (243/16).

فكان موقف هارون الأناة والتريث - رغم بشاعة الجريمة - حفاظًا على وحدة الجماعة، حتى يعودا أخوه، ويتشاورا في علاج الموقف.

وفي الحديث: «**الأناة من الله، والعجلة من الشيطان**»[12]. «**يستجاب للعبد ما لم يعجل: يقول: دعوت، ولم يستجب لي**»[13]. وكم تمنيت - وأعلنت في مناسبات مختلفة للحركات الإسلامية، في الفترة التي كان لها فيها حرية التحرك والنشاط، أن تدخر قوتها، ولا تورط نفسها في مواجهات ومعارك، يدفعها إليها المغامرون المتعجلون، أو يستدرجها إليها المخططون الماكرون، وأن تشغل نفسها بنشر الدعوة إلى الإسلام الصحيح بالحكمة والموعظة الحسنة، على كل صعيد، وتربية الأجيال الصاعدة بهذا الإسلام وله، تربية متكاملة: عقلية وروحية وبدنية واجتماعية، والاندماج في المجتمع، لحل مشكلاته، وتخفيف معاناته، وتسديد خطواته، ورعاية حاجاته، وأن تدع التفكير في استخدام القوة والعنف، والاصطدام بالسلطات الحاكمة، لمدة عشرين سنة ... وستجد بعدها أنها أحدثت «ثورة سلمية» في المجتمع كله، وحققت انقلابًا فكريًا ونفسيًا وأخلاقيًا، من غير أن تشهر سلاحًا، أو تعلن جهادًا.

والمخوف هنا دائمًا أن القوى الخائفة من الإسلام والمناوئة له لا تدع الحركة الإسلامية حتى تمتد وتنمو وتتسع، ولهذا تفاجئها بضربات سريعة حتى تمزق شملها، وتعوق سيرها، ولا تمكنها من التوسع والانتشار المأمول.

---

(12) رواه الترمذي وحسَّنه من حديث سهل بن سعد، ورواه ابن أبي شيبة وأبو يعلى من حديث أنس بلفظ: «**التأني من الله ...** » الحديث.

(13) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

وهذا أمر وارد، ولكن الحركة أيضًا عليها بعض اللوم، فإنها كثيرًا ما تستفز تلك القوى المتربصة، وتستثير فيها غرائز الخوف، حين تستعرض عضلاتها، وتظهر قوتها الجماهيرية بصورة أو بأخرى، وكانت الحكمة تقتضي أن تحسب كل خطواتها، ولا تمكن عدوها منها ما استطاعت، وتسأل الله العافية، فإذا وقع البلاء بقدر الله، لم يكن لها إلا الصبر والمصابرة.

3 - المبالغة:

ومن توابع العاطفية: المبالغة والتهويل، وهذه آفة من آفات الأمة كلها فنحن للأسف في جل الأمور نقف في طرفي الإفراط والتفريط. وقلما نقف موقف «الوسط» الذي مدح الله به هذه الأمة **{وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا}** [البقرة: 143].

وقد انتقل هذا إلى الحركة الإسلامية. فأصبحت المبالغة والتهويل سمة غالية: في وصفها لنفسها، وفي نقدها لخصومها، وفي غير ذلك من المواقف.

ولهذا شاع «أفعل التفضيل» على ألسنة دعاتها، وأقلام كتابها: الأعظم، والأقوى، والأفضل، والأمثل، والأحقر، والأضعف، والأسوأ، كما شاعت الأوصاف الضخمة والفخمة والألفاظ الرنانة، والجمل المثيرة.

إننا نبالغ في الإعجاب بأنفسنا، ونبالغ في النقد لغيرنا.

ولا ينازع عاقل أن نعتز بأنفسنا وحضارتنا، فهذا هو الواجب في أمة تريد أن تنهض وتتبوأ مكانها تحت الشمس. وخصوصًا عندما تواجه بغزو حضاري وثقافي يريد أن يقتلعها من جذورها، ويشككها في وجودها ذاته.

ولكن الخطر أن يستحيل هذا الاعتزاز إلى عجب وغرور يعمي ويصم

والعجب أحد المهلكات الثلاث كما في الحديث الشريف[14].

وهذا ينطبق على الأفراد وعلى الجماعة.

وقد أشار إلى ذلك القرآن حين قال: **{وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا}** [التوبة: 25].

وقال ابن مسعود: «إنما الهلاك في اثنين: العجب والقنوط».

وعلق على ذلك الإمام «الغزالي» فقال: «إنما جمع بينهما، لأن السعادة إنما تنال بالسعي والطلب، والجد والتشمر، والقانط لا يسعى ولا يطلب لأن ما يطلبه غير ممكن حصوله في نظره.

والمعجب يعتقد أنه قد سعى، وأنه قد ظفر بمراده، فلا يسعى. فالموجود لا يطلب، والمحال لا يطلب، والسعادة موجودة في اعتقاد المعجب حاصلة، ومستحيلة في اعتقاد القانط، فمن ههنا جمع بينهما». اهـ.

ونحن نبالغ في نقدنا لغيرنا وخصوصًا للحضارة الغربية، فنحن لا نجحد أن في الحضارة الغربية آفات أساسية لا تنفك عنها، لأنها ملازمة لها، لأنها جزء من بنيتها، كالنظرة المادية، والنفعية والعنصرية، ونحوها.

ولكن لا ينبغي أن ننسى أن في هذه الحضارة نقاط قوة يجب أن تذكر لها من باب الإنصاف أولًا، ومن باب معرفة الخصم على حقيقته ثانيًا.

من ذلك: قيامها على العلم التجريبي، وحسن الإدارة، والتنظيم، والتعاون

(14) ونصه: «**ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه**». رواه الطبراني في «الأوسط» عن أنس وعن ابن عمر، وذكره الألباني في «صحيح الجامع الصغير».

أو علم الفريق، والاهتمام بالأخلاق الاجتماعية، واحترام الإنسان، وحراته وحقوقه، وخصوصًا داخل أوطان أصحاب هذه الحضارة وحرصهم على الشورى ومقاومة ظلم الحكام واستبدادهم بالشعوب.

ويحسن بي هنا أن أذكر صورة من تراثنا المجيد ترينا مدى إنصاف سلفنا لخصومهم، واعترافهم بفضلهم، وإن كان بينهم من الحروب ما بينهم.

وهذه الصورة ليست قصة في كتب الأدب أو التراجم أو التاريخ، بل هي حديث رواه الإمام أحمد في «مسنده»، ومسلم في «صحيحه»، واللفظ هنا لمسلم. فقد رويمن حديث موسى بن علي، عن أبيه، قال: قال المستورد القرشي عند عمرو بن العاص: سمعت رسول الله صصص يقول: «**تقوم الساعة والروم أكثر الناس**»، فقال له عمرو: أبصر ما تقول! قال: أقول ما سمعت من رسول الله صصص، قال: لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالًا أربعًا: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين، ويتيم، وضعيف، والخامسة حسنة جميلة: أمنعهم من ظلم الملوك»[15].

ويعجب المرء أن تصدر هذه الشهادة للروم من قائد عسكري وسياسي مسلم، مثل «عمرو بن العاص» الذي خاض أكثر من معركة مع الروم في فلسطين ومصر وغيرها، ولكنه الإسلام الذي علمهم أن يكونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولم على أنفسهم، وألا يجرمنهم شنآن قوم على ألا يعدلوا.

وقد لاحظ المراقبون على الحركة الإسلامية الحديثة أنها تبالغ في تقدير

(15) رواه مسلم في «صحيحه» كتاب الفتن وأشراط الساعة.

قوتها، وتبالغ في بيان ضعف خصومها، والتهوين من شأن العوائق في مسارها، وتهول في المدح إذا مدحت، وفي الذم إذا ذمت، كما تبالغ في الحب إذا أحبت، والكره إذا كرهت.

وقد جاء في الأثر «أحبب حبيبك هونًا ما، عسى أن يكون بغيضك يومًا ما، وأبغض بغيضك هونًا ما، عسى أن يكون حبيبك يومًا ما».

وفي المثل: «لا يكن حبك كلفًا، ولا بغضك تلفًا».

وقد علمنا القرآن أن نكون عدولًا مقسطين مع من نحب ومن نكره، مع أنفسنا ومع أعدى أعدائنا.

يقول تعالى: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ}** [النساء: 135].

ويقول: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ}** [المائدة: 8].

رابعًا: الخوف من التجديد:

وهذه نقطة من نقاط الضعف في الحركة الإسلامية: إنها تخاف من الاجتهاد، ولا ترحب كثيرًا بالتجديد، ولا تميل إلى «الانفتاح» ومواكبة التطور.

ورغم أنها تدعو - من الناحية النظرية على الأقل - إلى «الاجتهاد» في المجال الفقهي، فهي تميل إلى «التقليد» في المجال الفكري، والمجال الحركي وتؤثر أن يبقى كل قديم على قدمه.

وليس هذا مقصورًا على الحركات التي عرفت بنزعتها «الظاهرية» في فهم الإسلام، والحرفية في تفسيره، بل يكاد ذلك يعم الحركات الإسلامية المعاصرة. حتى التي اشتهرت منها بالمرونة وسعة الأفق، وخاضت من التجارب ما يجعل لها الحق في التجديد والتغيير.

فهي تتمسك أحيانًا ببعض الوسائل والأشكال، ولو وقفت حجر عثرة في سبيل انتشارها، أو جلبت عليها متاعب هي في غنى عنها. وتنفر من الأفكار الحرة، والنزعات التجديدية، التي تخالف المألوف والمستقر من الأفكار والأعمال، وتضيق بالمفكرين من هذا النوع الذي يصعب صبه في قالب حجري لا يفارقه، أو حبسه في قمقم فكري لا يخرج منه، وربما تصدر في شأنهم قرارات أشبه بـ «قرارات الحرمان» بحيث لا تقرأ كتبهم، ولا تشهد حلقاتهم.

ولهذا لا يبعد أن يتسرب كثير من هؤلاء منها واحدًا بعد الآخر، كما يتسرب الماء من بين الأصابع، لا كفرانًا بأهدافها، ولكن فرارًا بعقولهم أن تجمد أن توضع في ثلاجة ... والحركة نفسها تستريح بانسحابهم، لأنهم يحركون السواكن، ويثيرون البلبلة.

رأيت بعض الأحزاب الإسلامية يفرض على أتباعه نوعًا من الثقافة المحفوظة، التي تردد وتكرر مفاهيمها كأنها قرآن يتلى، فيغدون وكأن كل واحد منهم «شريط مسجل» يردد ما ملئ به، لا إنسان يفكر ويحاور، ويأخذ ويدع، فما قاله أميرهم أو رئيسهم في موقف من المواقف، أو في قضية من القضايا ذات الأوجه المتعددة، هو الصواب الذي لا يقبل الخطأ، بل الحق الذي لا يحتمل الباطل.

ورغم إنكارهم نظريًا للتربية الصوفية، التي تقوم على السمع المطلق والطاعة العمياء، التي شعارها: من قال لشيخه: لِمَ؟ لا يفلح! والمريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل! نراهم يربون أتباعهم على مثل هذه النزعة، وإن لم يقولوا ما قال المتصوفة.

ومن قال: لِمَ؟ نظر إليه بتحفظ، فإن قال أكثر منها فهو متمرد.

والأدعى من ذلك ألا يقتصر ذلك على الجنود والمريدين، بل يُراد أن يُطبع العلماء والمفكرون والكتاب بهذا الطابع التقليدي، فلا يخرجون عن الإطار المرسوم، لا في التفكير ولا في التعبير، فإن فعلوا قوبلوا بأعنف الهجوم.

ولا غرو أن لاقى الداعية العلامة المرحوم الدكتور «السباعي» ما لاقى، لأنه سمى عدالة النظام الإسلامي «إشتراكية الإسلام» اجتهادًا منه، بغية جذب فئات من الناس تستهويها كلمة «اشتراكية» وتحسب أن الإسلام في نظامه الاقتصادي لون من الرأسمالية.

ولقى كاتب إسلامي آخر من عنف الهجوم ما لقى، لأنه كتب في العدد الافتتاحي لمجلة «المسلم المعاصر» يرجو أن تكون لسان ما سماه «اليسار المسلم» اجتهادًا منه في الرد على الذين يصنفون الدعاة إلى الإسلام في صف «اليمين» دائمًا، بما يحمل ذلك من ولاء للنظام الرأسمالي، وتبعية للغرب ... إلخ.

ولست من الموافقين على هذ التعبير أو ذاك، ولكني أوافق كل الموافقة أن يكون لأهل الفكر حقهم في الاجتهاد، وهم مأجورون عليه، أصابوا أم أخطأوا

وأنكر كل الإنكار مصادرة حقهم في حرية الرأي. كما أنكر الاتهام والتشنيع لمجرد إبداء رأي مخالف للمعهود، فرب رأي يُرفض اليوم من الأكثرية، يغدو هو الرأي المقبول والسائد بعد مدة من الزمان.

طلبت مجلة إسلامية حركية إلى كاتب إسلامي كبير أن يمدها بمقالاته، فكتب لها مقالًا، يحمل رأيًا خاصًا له بجواز قيام أحزاب إسلامية في ظل نظام إسلامي، لأدلة واعتبارات يراها، ولكن رئيس التحرير جمد هذه المقالة، ولم يأذن لها بالنشر، لأنه يخالف الرأي التقليدي المتوارث: ألا حزبية في الإسلام، وهو كلام مجمل يحتاج إلى بيان وتفسير، وكانت له ظروفه وملابساته.

وكُلف أحد المشايخ من الدعاة العاملين في حقل الحركة الإسلامية يومًا بوضع خطة عمل لخمس سنوات، فكان مما اقترحه ضمن الخطة إجراء حوار متصل مع القوى الخائفة من الإسلام، والمناوئة له، والمعادية للحركة الإسلامية: حوار فكري مع المستشرقين وأمثالهم من رجال الفكر الغربي ... وحوار ديني مع الأحبار ورجال الدين المستعدين للتفاهم والوقوف في وجه المادية الطاغية ... وحوار سياسي، مع الدبلوماسيين والسفراء والمهتمين بالشئون السياسية ... والغرض من هذا الحوار تغيير الفكرة القديمة التي تصور الإسلام غولًا، والمسلمين وحوشًا، والحركة الإسلامية حركة إرهاب وعنف دموي ... وإمكان إقامة تعايش سلمي بني الإسلام والأديان السماوية الأخرى، وأن يكون للمسلمين حقهم في حكم أنفسهم في أوطانهم وفق عقيدتهم وشريعتهم.

والعجيب أن هذا الاقتراح قوبل من الأغلبية بالرفض والسخرية حتى قال

من قال: إن الشيخ أصبح تقدميًا!!

وفي ظل هذا المناخ الفكري، تجد الآراء المتشددة، والمواقف المتشنجة رواجًا وإقبالًا، ويعتبر أصحابها أبطالًا.

وفي ظل هذا المناخ تنفق سوق المزايدات على إرضاء جمهور المتدينين بإظهار التشدد في الرأي، والمتاجرة باتخاذ مواقف التصلب.

وأكثر الناس يظنون أن الانحراف يتمثل في توظيف العلم في اتباع هوى السلاطين. ونسوا أن يضيفوا إليه توظيف العلم في اتباع أهواء الجمهور، وفي رأيي أن اتباع أهواء العامة أشد خطرًا من اتباع هوى السلطان، لأن الذين يتبعون السلاطين يكشفون ويرفضون، أما الذين يتبعون أهواء الجماهير فهم في نظرهم الأبطال الصادقون!!

وقد سدد الفكر المتشدد في الستينات من القرن العشرين، نتيجة لظروف وأوضاع معينة لا تخفى على الدارسين، حتى انتهى بدعاته إلى الانفصال عن المجتمع، والاستعلاء عليه، ورميه بالجاهلية المطلقة، وتجلت «ظاهرة الغلو في الكفر»، تلك الفكرة التي تتهم جماهير المسلمين بأنهم كفار، لأنهم لم يفهموا «لا إله إلا الله» ولم يؤمنوا بحاكميته سبحانه! وترى من العبث «الاجتهاد» لإيجاد حلول للمشكلات المعاصرة، وتسخر من محاولة «تجديد الفقيه الإسلامي» في مجتمع لا يلتزم بالإسلام، وترفض دعوة الناس بتقديم النظام الإسلامي لهم، إذ الخطوة الأولى أن تقدم لهم العقيدة حتى يسلموا أولًا، ثم تعرض عليهم بعد ذلك نظم الإسلام: الاقتصادية والسياسية والاجتماعية؟

هذه أبرز نقاط الضعف أو مواضع الخلل، التي تؤخذ على الحركة

الإسلامية المعاصرة، ذكرته احتسابًا لله، ونشدنًا للكمال، وأنا أعلم أن في أبناء الحركة من يضيق بهذا النقد ويفزع منه، وأن في خصوم الحركة من يلتقط هذه الكلمات ليضخمها ويستخدمها للتشويش على الحركة وأهدافها، بل للتشويش على الإسلام ذاته كما أشارت إلى ذلك من قبل، مغفلًا - عمدًا - ظروف الحركة الصعبة من ناحية، وما حققته من إنجازات تذكر فتشكر من ناحية أخرى.

وهذا ما نتحدث عنه في الصفحات التالية، باحثين عن أفضل السبل لتدارك النقص، وابتغاء الكمال.

* * *

إلى الأمل والعمل

ما ذكرناه عن الأمة الإسلامية أولًا، وعن الحركة الإسلامية ثانيًا، لا يعني - كما يصور بعض المتطيرين أو بعض ذوي الغرض - أن الأمل مفقود، وأن الطريق مسدود.

فثمت دلائل كثيرة تبشر بالخير، على مستوى الأُمة، وعلى مستوى الحركة، وإجماعنا على أن هناك خللًا يجب أن يسد، وقصورًا يجب أن يتلافى، والبحث عن هذا الخلل لتشخيصه ووصف العلاج له ... كل هذا من الظواهر الصحية المبشرة بغد أفضل. فالوعي بجوانب النقص أول خطوات تحقيق الكمال.

انصفوا الحركة الإسلامية:

على أن أول خطوة في سبيل العلاج الصحيح أن ننصف الحركة الإسلامية، التي ترنو إليها الأُمة على أنها مناط الرجاء، وهذا يحتم علينا أن نذكر ما لها - أو على الأقل ما لها - من حسنات وثمرات، كما ذكرنا ما عليها من مآخذ، وما لها من حسنات ليس هينًا ولا قليلًا.

وقبل ذلك ينبغي أن نذكر ما لها من عذر فيما قصرت فيه، وما يعترضها من عقبات قد تعجز وحدها عن تذليلها.

المناخ الذي تعمل فيه الحركة الإسلامية:

إن الحركة الإسلامية تعمل في مناخ لا تحسد عليه، مناخ لا يسمح للإسلام فيه أن يقول كلمته بصراحة، ولا يجمع أبناءه في حرية. وقد يؤذن لكل ذي

نحلة أو مذهب أن يعبر عن نفسه إلا الإسلام ودعوة الإسلام.

الإسـلام المسـموح بـه هـو الإسـلام «الموجـه»، الإسـلام الحكـومي، أو الإسلام «المستأنس»، الذي جرد من كل سلاح من أسلحة القوة والحيوية.

فـي هذا الجو الخـانق - جو القهر والاستبداد - تعمل الحركـة الإسـلامية. تعمل ويدها مغلولـة، وأقدامها مقيدة، تشن عليهـا الحـرب من كـل الجبهـات داخلية وخارجية، وبكل الأسلحة: جسدية ونفسية، فكرية وإعلامية، اقتصـادية وسياسية.

ولا تكاد تفيق من ضربة إلا لتتلقى أخرى، أو تقوم من محنـة إلا لتواجـه بمحنـة أقسـى وأعتـى، حتـى تكـاد تنسـي الأخـرة مرارة الأولـى علـى قسوتها، وكادت تكون أيام المحن هي الأصل، وأيام العافيـة هـي الاستثناء، وغدا أبنـاء الحركة يتمثلون بقول أبي الطيب:

فصـــرت إذا أصـــابتني ســـهام   تكسـرت النصـال علـى النصـال!

وقد أثبتـت التجـارب فـي أقطـار إسـلامية شـتى، وفـي أزمنـة مختلفـة: أن الحركـة الإسـلامية إنمـا تنـتعش وتزدهر فـي ظـل الحريـة، هنـاك تتجـاوب مـع الفطر السليمة، والعقول الراشدة، فيهتدي علـى يديها الضـالون، ويـزداد الـذين اهتدوا هدى ...

هناك ينتقل كثيرون من السلبية إلـى الإيجابيـة، مـن العزلـة إلـى المشـاركة، من التدين الفردي، إلى العمـل الجمـاعي ... مـن قولـه نفسـي نفسـي، إلـى قولـه: أمتـي أمتـي ... مـن شـعار: دع الملـك للمالـك، والخلـق للخـالق!! إلـى شـعار: أصلح نفسك وادع غيرك.

{وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ} [فصلت: 33].

كما أثبتت الوقائع: أن الحركة الإسلامية إنما تنكمش وتضمر، بل تذوي وتذبل، حين يخنقها «غاز» القهر والاستبداد، وهو الذي تعانيه اليوم في جل أقطار الإسلام، إن لم يكن في كلها.

الحركة باقية ماضية:

ورغم هذه الظروف الصعبة التي تعمل في ظلها الحركة الإسلامية، لا يستطيع أحد أن ينكر ما قدمته الحركة الإسلامية للأمة الإسلامية، في بلاد العرب والمسلمين كافة، على صعيد الفكر والشعور والسلوك والتربية والجهاد، وخصوصًا بعد تمكن الاستعمار من أقطارهم، وهدم الخلافة الناظمة لعقدهم، وهيمنة الفكر الغربي على مثقفيهم، ثم سيطرة الأنظمة الوطنية العلمانية على أزمة الحكم والتوجيه لحياتهم، ولا يستطيع دارس منصف أن يزعم أن الحركة قد تجمدت أو شاخت، فالحركة باقية ببقاء الإسلام، الذي تستمد قوتها منه.

إن الحركة الإسلامية - إن أخفقت في إقامة الدولة الإسلامية المنشودة - فهذا لا يعني أن دورها قد انتهى.

والمراقبون الغربيون أنفسهم يدركون هذا، ويعلمون أن المارد المحبوس في قمقمه يمكن في أي لحظة أن يفك الطلاسم ويبطل السحر، ويخرج من أسره عملاقًا جبارًا.

هكذا قال أحدهم قديمًا ... وهو المستشرق المعروف «جب» الخبير

بالإسلام وبالشرق في كتابه «إلى أين يتجه الإسلام» قال: «إن الحركات الإسلامية تتطور عادة بسرعة مذهلة، تدعو إلى الدهشة، فهي تنفجر انفجارًا مفاجئًا، قبل أن يتبين المراقبون من أمارتها ما يدعوهم إلى الاسترابة في أمرها، فالحركات الإسلامية لا ينقصها إلا وجود الزعامة، لا ينقصها إلا ظهور «صلاح الدين» جديد»!!.

وحديثًا قال مستشرق آخر هو: «برنارد لويس» في كتابه «الغرب والشرق الأوسط» فقد نقل عن الدكتور «نبيه أمين فارس» - أحد أعلام المؤرخين العرب المعاصرين - قوله عن الإخوان المسلمين:

«إن فكرتهم مثاليتهم لا تزال تمثل أعمق مطامح المسلمين من المغرب إلى أندونسيا»، ثم قال «لويس»: والشيء الواضح الوحيد هو أن من بين جميع الحركات الكبرى التي هزت الشرق الأوسط في آخر قرن ونصف كانت الحركات الإسلامية وحدها أصيلة في تمثيلها لمطامح أهل هذه المنطقة.

فالليبرالية والفاشية والوطنية والقومية والشيوعية والاشتراكية كلها أوروبية الأصل، مهما أقلمت وعدِّلت في الشرق الأوسط، والمنظمات الإسلامية هي الوحيدة التي تنبع من تراب المنطقة وتعبر عن مشاعر الكتل الجماهيرية المسحوقة.

وبالرغم من أن كل الحركات الإسلامية قد هزمت حتى الآن ... غير أنها لم تقل بعد كلمتها الأخيرة. اهـ.

بعض شعار الحركة الإسلامية:

على أن الحركة الإسلامية بشهادة الأنصار والأعداء، قد حققت نجاحًا

ملموسًا في ميادين شتَّى لا يجحدها إلا مكابر:

1- لقد صححت الحركة المفاهيم الإسلامية التي شوهتها عصور الجمود، أو عهود الاستعمار، وطاردت الغزو الثقافي الذي خلا له الميدان في بعض المراحل واستعبد عقول كثير من المثقفين من أبناء أمتنا.

وأغنت المكتبة الإسلامية بعدد غير قليل من الكتب والرسائل في مختلف جوانب الثقافة اللازمة للمسلم المعاصر، حتى أثرت في عدد من الكتاب الذين كان ولاؤهم للفكر الغربي، فاتجهوا بكتاباتهم إلى الإسلام، وبذلك أحدثت تيارًا فكريًا ضخمًا كان له أعمق الأثر في تغذية الاهتمام بإحياء التراث الإسلامي، ونشره وتوجيه الدراسة إلى الموضوعات الإسلامية في الجامعات حتى المدنية منها.

2- أعادت الحركة لجماهير المسلمين الشعور بالذاتية الإسلامية، وبالانتماء إلى خير أمة أخرجت للناس، وزرعت الأمل في قلوبهم بغد مشرق للإسلام بعد يأس غذَّاه طولُ الهزائم والنكسات من جراء الغزو الخارجي والطغيان الداخلي، وحطمت الحركة الهالة التي قدمت بها الحضارة الغربية، وجعلت منها صنمًا يعبد وحررت نفس المسلم من الشعور بالدونية والهزيمة الروحية أمام تلك الحضارة التي كاد سنا برقها يذهب بالأبصار، ويخلب الألباب. وبخاصة أنها جاءتنا وهي في أوج قوتها وتقدمها، ونحن في حضيض ضعفنا وتخلفنا.

3- أنشأت الحركة جيلًا من المسلمين والمسلمات، والملتزمين بالإسلام: اعتقادًا وتبعدًا، وفكرًا وسلوكًا، ودعوة وجهادًا، ولا زال هذا الجيل ينمو

ويتكاثر يومًا بعد يوم في أنحاء شتى من أرض الأمة الإسلامية، وهو جيل رباني الواجهة قرآني الخلق محمدي القدوة إسلامي الأفكار والمشاعر، قدم الشهداء بعد الشهداء في ميادين الجهاد في سبيل الله، ضد الاستعمار والصهيونية في الخارج، وضد الطغيان واللادينية في الداخل.

وهو جيل استعصى على التذويب برغم تتابع المحن القاهرة، والتي استخدم فيها من أدوات التعذيب ووسائل القهر ما يذيب الحديد. عذبوا الأبدان، وأزهقوا الأرواح، وجوعوا البطون، وقهروا الأنفس، ولم يزدهم ذلك إلا إيمانًا وتسليمًا.

4- وكونت الحركة كذلك - وراء هذا الجيل الملتزم - رأيًا عامًا إسلاميًا، يناصر الإسلام ويحب دعوته، ويظهر الولاء لشريعته، وينكر الإلحاد والإباحية والعلمانية. وقد ظهر ذلك في التنادي بتطبيق الشريعة الإسلامية وضرورة الرجوع إلى أحكامها، والنص في كثير من الدساتير على أنها المصدر الأول أو الرئيسي للتشريع، واستجابة بعض الحكام لصوت الجماهير المنادية بذلك بالفعل ولا زالت القاعدة الجماهيرية الموالية للإسلام، المنكرة للعلمانية، تتسع يومًا بعد يوم، حتى غدت الأحزاب السياسية العلمانية الأصل تتملقها وتلتمس رضاها وتأييدها في الانتخابات النقابية، معلنة قبولها لحكم الشريعة والدعوة إليها!!

5- كما أسهمت الحركة الإسلامية بأكبر نصيب في إيجاد ما اصطلح تسميته بـ «الصحوة الإسلامية» المعاصرة، التي شملت أعدادًا لا تحصى من المثقفين من الفتية والفتيات، في شتى أقطار العالم الإسلامي، وخارج العالم الإسلامي أيضًا في أوربا وأمريكا والشرق الأقصى، وكان لها

أثرها في الجهاد الإسلامي في أفغانستان والفلبين وغيرهما ... وفي إقامة البنوك والمؤسسات الاقتصادية الإسلامية ... وفي انتشار الكتاب الإسلامي حتى ضرب الرقم القياسي في سوق التوزيع.

فهي بحق صحوة فكر وعاطفة وسلوك، كما لمسنا آثارها في بلاد الله الرحبة.

ولهذا ليس من العدل أن نقول: إن الحركة أخفقت في مهمتها، فإن مهمتها ذات شعب متعددة، وكل فرد مسلم تكسبه الحركة، وتنقله من حمأة الجاهلية الحديثة، أو من صحراء التيه والضياع إلى دائرة الالتزام الفكري والخلقي للإسلام - يعد مكسبًا ذا بال، وتحقق به الحركة جزءًا من أهدافها، كما قربها من أهدافها الأخرى، وفي الحديث الصحيح: «**لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم**».

وكانت الحركة الإسلامية - بفكر علمائها، وصبر دعاتها، وصمود أبنائها، وتضحيات شبابها وشيوخها، وغنى تاريخها - هي التي هيأت لهذه الصحوة أن ترى النور وأن تبرز إلى حيز الوجود والتأثير.

ومن العدل أن نسجل للحركة الإسلامية تطورها الجديد في أفكارها وعلاقاتها.

فقد رأينا الإخوان المسلمين في مصر يتعاونون مع حزب الوفد الجديد في خوض معركة الانتخابات، والوصول إلى مجلس الشعب، لإسماع صوت الدعوة الإسلامية لنواب الأمة، وإن أنكر ذلك بعض المتشددين.

ورأينا إخوة آخرين يتحالفون مع القوى الوطنية المعارضة، للعمل على

إسقاط نظام طاغوتي يقاوم الإسلام جهرة، رغم تشنج فئة من المخلصين الذين يرفضون أي تحالف أو تفاهم مع أي فرد أو هيئة أو فئة غير ملتزمة بالإسلام.

ورأينا بيان الحركة الإسلامية في سورية يتضمن مواقف جديدة متطورة، في برامجها الإصلاحية والسياسية، وعلاقاتها الوطنية والدولية.

ورأينا الجماعة الإسلامية في باكستان في بيانها الانتخابي في حياة الإمام «المودودي» تتبنى إلزامية الشورى، على غير ما رآه المودودي من قبل، وتوافق على مبدأ إعطاء حق الإضراب عن العمل، رفعًا لظلم، أو طلبًا لحق، لا ينال إلا بهذا الطريق ... إلى غير ذلك من آراء ومواقف فيها كثير من السعة والمرونة، وقد كانت مرفوضة لديها من قبل.

مزيد من العمل والعطاء:

ومع هذا، فإن على الحركة الإسلامية أن تضاعف الجهد، وتكثف العطاء، حتى تحقق الآمال المنوطة بها.

على الحركة أن تنتقل من مرحلة الكلام إلى مرحلة العمل، وأن تتحرر من تلك الآفة التي غدت ظاهرة عامة بيننا نحن المسلمين، والتي غدت تعوق خطانا عن السير، وهي كثرة النواح على الماضي، وقلة العمل للحاضر، والنواح لا يحيي ما مات، ولا يرد ما فات.

إن آفتنا كثرة الشاكين المتوجعين، وقلة المداوين، كثرة من يسبون الظلام، وقلة من يوقدون الشموع.

أجل، كثرت الشكوى وتكررت من الأدواء والمآسي، حتى لم يعد هناك

أحد إلا يشكو، فمن المشكو منه إذن؟ كلنا شاك وكلنا مشكو منه.

ولقد حدثوا أن واعظًا بليغًا وعظ الناس يومًا حتى بكوا من تأثير الموعظة، ثم بحث عن كتابه فوجده قد سرق، ونظر إلى الحاضرين، عسى أن يلمح بينهم وجهًا يلوح عليه آثار الجريمة، ولكنه وجد الجميع يبكون، فقال لهم: كلكم يبكي، فمن سرق الكتاب؟!

والحركة الإسلامية يلزمها أن تنتقل من دائرة الشكوى ولوم الزمان إلى دائرة العمل، والعمل المتواصل الدؤوب: العمل على مستوى الإسلام، ومستوى العصر، ومستوى ما يعمل الآخرون لأديانهم. العمل للحاضر والعمل للمستقبل، العمل لإقامة البناء، والعمل لحمايته من معاول الهدم.

ولا يعفينا من حساب الله، ولا من لوم الناس، ولا من سؤال التاريخ، ولا من تأنيب الضمير أن نقول: إننا كنا ضحية لمخططات جهنمية دبرتها القوى المعادية للإسلام في الخارج، ونفذها عملاؤها في الداخل!! فإلى متى نظل حقل تجارب لخطط الأعداء؟ وإلى متى نشكو من تخطيط غيرنا ضدنا، ولا نخطط نحن لأنفسنا؟ لماذا لا نقابل تخطيطهم الهدام بتخطيط بناء مضاد؟ ولا يفل الحديد إلا الحديد.

العمل لكسب النخبة والجماهير معًا:

ولا بد للحركة الإسلامية أن تعمل بجد وعزم للوصول إلى قلب النخبة والجماهير وإزالة ذلك السور الذي ضرب بين الحركة وبين عدد كبير من «النخبة» أي المثقفين من جهة، وبينها وبين عدد كبير من الجماهير من جهة أخرى.

فالنخبة من المثقفين قد غزاهم - أو غزا كثيرًا منهم - الفكر الدخيل، فأثر في أفكارهم ومفاهيمهم، كما أثر في مشاعرهم وولائهم، فهم لا يفهمون الإسلام إلا كما يفهم الغربي المسيحية، ولا يسقطون على الإسلام ما أسقطه الغربيون على مسيحيتهم، فهم يفترضون عداوة موهومة بين الإسلام والعلم، ومناقضة بين الشريعة والتطور، ويرون أن مكان الدين في ضمير الفرد، أو تحت سقف المسجد لا يتعداه، وهم يتخذون من التراث موقفًا عدائيًا، على حين يقدسون كل ما جاء من الغرب ويضمرون الولاء له، والتقدير لرجاله، ويجعلون منه مؤئلًا وإمامًا.

ولا بد للحركة الإسلامية بكل مدارسها وجماعاتها وشخصياتها أن تبذل جهدًا أكثر من النخبة المثقفة، وأن تخاطبها بلسانها لتبين لها، وأن تتعرف على ما لديها من شبهات لترد عليها بالعلم لا بالاتهام، أو من استفسارات لتجيب عنها، وأن يقوم حوار علمي هادئ ممتد بينها وبينهم، ولا ريب أن تغيرًا كبيرًا قد حدث بين المثقفين، وتغيرت مفاهيم الكثيرين منهم مما لقنه لهم «الغزو الفكري»، وانضم كثيرون كذلك لركب العمل الإسلامي.

والجماهير التي قامت الحركة أساسًا لتنهض بهم، وتأخذ بأيديهم وتعلم جاهلهم، وتنصف مظلومهم، قد استطاع الخصوم الدهاة المدربون أن يخوفوا أعدادًا منها من الحركة، وينفروهم منها، وينشروا من الأكاذيب حولها ما يزهدهم فيها، أو على الأقل يوئسهم من مستقبلها.

ولا بد للحركة أن تعمل جاهدة على إذابة حاجز العزلة، وكسر هذا السور المفتعل، والوصول إلى قلب الجماهير التي هي أولى الجهات بالتعبير عنهم، فهي منهم وإليهم وبهم. وجماهيرنا مؤمنة بفطرتها وتاريخها، وهي مع حركة

الإسلام، ونداء الإيمان، كما يدل على ذلك استقراء الواقع، وقراءة التاريخ.

إنما تنجح الحركة يوم تكون حركة كل المسلمين لا حركة فئة من المسلمين.

ترشيد الصحوة الإسلامية:

ولا بد للحركة الإسلامية من بذل الجهود الفكرية والعملية لترشيد الصحوة الإسلامية، وتسديد خطواتها على الطريق الصحيح، الذي يجنبها المزالق والعثرات، وينأى بها عن الغلو والتفريط، ويقيها السقوط في المهاوي التي يحفرها لها الحفارون، أو تحفرها لنفسها بسوء تقديرها.

وقد دلت شواهد ووقائع كثيرة أن هناك جهات أجنبية، وقوى معادية خفية تعمل بجد ودهاء، وتدبر في الظلام والخفاء، لإدخال هذه الصحوة في متاهات لا تستطيع الخروج منها، وإقحامها في معارك لا مبرر لها، وشغلها بالنوافل عن الفرائض، وبالفروع عن الأصول، وبالشكل عن الجوهر، وبالمختلف فيه عن المتفق عليه. كما تعمل على تغذية ما سموه «التطرف الديني»، وتضخيمه واستخدامه لمصالحهم.

وأنا لست من الذين يحاولون رد كل ما يحدث في مجتمعاتنا إلى مؤثرات أجنبية ومخططات جهنمية: صهيونية أو صليبية أو شيوعية، تستخدم فيها بعض القوى المحلية من حيث تشعر أو لا تشعر، لأن هذا التفكير يشعرنا في النهاية أننا مسيرون لا مخيرون، كما تقول الجبرية الدينية، أو أننا «أحجار على رقعة الشطرنج» تحركنا وتغير مواقعنا القوى الكبرى بغير إرادتنا، كما تقوله الجبرية السياسية!!

وفي هذه القضية أرى أن ما سموه «التطرف الديني» أفرزته أسباب عديدة شرحتها في كتابي «الصحوة الإسلامية». وهي أسباب من داخل كياننا قبل كل شيء.

ولكني لا أنكر أن هناك قوى معادية لانتصار الإسلام، وعودته إلى قيادة المجتمع، استغلت هذه الظاهرة بخبث ودهاء، وحرصت على تغذيتها لتكبر وتنمو ورمت لها بالوقود لتظل متأججة ملتهبة. وهي بذلك تكسب جملة فوائد منها:

1- تنفير جماهير الناس من ظهور الإسلام نظامًا حاكمًا للحياة، ما دام الذين يدعون إليه ويجسدون صحوته، يتبنون التشديد والتضييق، وتحجير ما وسع الله، وتعسير ما يسر على عباده، على عكس ما قال النبي صصص لأصحابه: «**إنما بعثتم ميسرين ولم تُبعَثُوا معسرين**»[16]، وبذلك ينعزل الجمهور الذي ينشد اليسر ويكره العسر، عن الصحوة بل قد يقف منها موقف الجفاء أو الخصام، وفي هذا خسارة كبرى.

2- شغل جيل الشباب الذي يمثل العمود الفقري للصحوة الإسلامية، بالمسائل الجزئية، والقضايا الجانبية، وتبديد جهوده الفكرية، وطاقاته العملية في الدعوة بحرارة لهذه الفرعيات، والمجادلة عنها والمخاصمة عليها، وإلهاؤه عن القضايا المصيرية الكبرى، التي تتصل ببقاء الإسلام، وسيادة أمته، وتحرير أوطانه، وتحكيم شريعته في الأرض.

3- شغل القوى الإسلامية المتحركة بعضها ببعض، فبدل أن توجه حركتها

(16) رواه البخاري وأبو داود والترمذي وغيرهم.

الصاعدة إلى عدوها المشترك، تتصارع فيما بينها، وتتراشق بالنهم، حتى يصل الأمر إلى حد التأثيم، بل التكفير ... وبهذا يهدم بعضها بعضًا، ويخربون بيوتهم بأيديهم! والعدو المتربص يقف متفرجًا قرير العين بما يرى، ولا مانع عند اللزوم أن يتدخل ليجهز على البقية الباقية.

4- إعطاء السلطات المتربصة بالدعوة الإسلامية - التي تتوجس منها خيفة أو تضمر لها كرهًا - مبررًا لتضرب التحرك الإسلامي، والعمل الإسلامي كله، السوي منه والشاذ تحت مظلة محاربة «التطرف» ومقاومة «المتطرفين».

5- تيئيس الناس - في النهاية - من الإسلام ودعاته وأن المد الإسلامي مصيره إلى جزر، والصحوة مآلها إلى نوم، وأن لا فائدة في أي عمل إسلامي ما دامت نتيجته أن يضرب من الخارج أو يتآكل من الداخل.

ونصيحتي للحركة الإسلامية أن تعمل على ترشيد الصحوة، ولا تحاول احتواءها والسيطرة عليها. فإن من الخير للحركة، وللصحوة، ولأمة الإسلام، أن تبقى هذه الصحوة حرة وعفوية وغير منسوبة إلى جماعة أو هيئة أو حزب، وهذه العفوية أو التلقائية أو «الهلامية» لها فائدتها في الامتداد الأفقي في مختلف شرائح المجتمع، دون عوائق نفسية أو اجتماعية أو سياسية، مما يعوق انتشار الدعوات ذات الاسم المعين والإطار الخاص، والتاريخ المعروف، والتي لها أعداء تقليديون، وخصوم منافسون، كما لها فائدتها في بقاء هذه الصحوة بمعزل عن إرهاب السلطات المستبدة، التي تعجز عن محاصرة هذه الصحوة أو ضربها.

خطوط عريضة لترشيد الصحوة:

وفـي ملتقـى الفكـر الإسـلامي الثـامن عشـر بـالجزائر «شـوَّال 1404هــ - يوليو 1984م»، وكان موضوعه «الصحوة الإسلامية» تحدثت عن مستقبل هذه الصحوة بين الأمل فيها والخوف عليها.

وكان مما طرحته على الملتقى لترشيد الصحوة وتجنيبها المزالق والمـآزق والعثرات - حتى تحقق الآمال المرجوة منها، وتتقي المحـاذير المخوفـة عليهـا - أن تنتقل من طور إلى طور، وترتقي من مرحلـة إلـى مرحلـة، بعد أن شـبت عن الطـوق وأصـبحت ظـاهرة عالميـة لهـا تغلغلهـا وتأثيرهـا، وامتـدادها طـولًا وعرضًا وعمقًا، وخصوصًا بين الشباب المثقف.

وقد حددت برنامج هذا الانتقال أو التطور في عشرين نقطـة، أساسـية، مـن شأنها - إذا روعيت وتحققت - أن تجعل هذه الصـحوة أهـلًا لقيـادة الأمـة كلهـا، وإزالة التناقض القائم بين عقيدتها المستقرة فـي ضـميرها، وبـين واقعهـا الـذي عزل الإسلام عن قيادة الركب وحكم المجتمع.

ويكفيني هنا أن أشير إلى عناوين هذه النقاط العشرين، التي تمثـل الخطـوط العريضة لمستقبل الصحوة المنشودة في فهم الإسلام، والـدعوة إليـه، والعلاقـة بالآخرين من العاملين له، والقاعدين عنـه مـن أبنـاء أمتـه، ومـن الجـاهلين بـه، والخائفين منه، والطامعين فيه، والحاقدين عليه من غير أمته.

لا بد أن تنتقل دائرة الاهتمام والتركيز:

1 - من الفروع والجزئيات إلى الأصول والكليات.

2 - من النوافل إلى الفروض.

3 - من المختلف فيه إلى المتفق عليه.

4 - من أعمال الجوارح إلى أعمال القلوب.

5 - من طرفي الغلو والتفريط إلى الوسطية والاعتدال.

6 - من التعسير والتنفير إلى التيسير والتبشير.

7 - من الجمود والتقليد إلى الاجتهاد والتجديد.

8 - من الكلام والجدل إلى العطاء والعمل.

9 - من العاطفية والارتجال إلى العملية والتخطيط.

10 - من التعصب على المخالفين في الرأي إلى التسامح معهم.

11 - من الإثارة إلى التفقه «أو من أسلوب الوعاظ إلى أسلوب الفقهاء، أو من حماس المنبر إلى هدوء الحلقة».

12 - من الكم وإلى الكيف «أو من الاهتمام بتزايد الأعداد ولو على حساب التربية إلى العناية بالتربية ولو على حساب العدد».

13 - من سماء الأحلام إلى أرض الواقع «أو من المثالي المنشود إلى الممكن الموجود».

14 - من الاستعلاء على المجتمع إلى المعايشة له «أو من موقف ممثل الاتهام إلى موقف الطبيب».

15 - من الانكفاء على الماضي إلى معايشة الحاضر، والإعداد للمستقبل.

16 - من الاستغراق في العمل السياسي إلى الاهتمام بالعمل الاجتماعي.

17 - من اختلاف التضاد والتشاحن إلى اختلاف التنوع والتعاون.

18 - من إهمال شئون الحياة إلى التعبد بإتقانها.

19 - من الإقليمية الضيقة إلى العالمية الواسعة.

20 - من الإعجاب بالنفس إلى محاسبة النفس «أو من الغلو في إثبات الذات إلى نقد الذات».

هذه هي المنطلقات العشرون والتي اعتبرت بمثابة «ورقة عمل» لتوجيه الصحوة الإسلامية ومن باب أولى: الحركة الإسلامية.

ولا ريب أن كل نقطة منها تحتاج إلى شرح وتحديد وتفصيل، أرجو أن يوفقني الله إلى معالجته في المستقبل.

العمل الاجتماعي:

ولا بد للحركة الإسلامية أن تحدد لنفسها ميادين للعمل تخدم بها دينها وأمتها، وألا يستهلك العمل السياسي كل جهودها ووقتها.

ومن ذلك: الميدان الاجتماعي الذي قصر فيه المسلمون تقصيرًا شائنًا، واستطاع أعداؤهم أن يستغلوه لنشر أديانهم المحرفة بين الجياع والمرضى والأميين والمشردين من أبناء أمتنا.

وهذا ما دعانا للمناداة بتكوين «الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية» التي تعمل بكل طاقاتها على توفير الغذاء للجائع، والكساء للعاري، والدواء للمريض، والرعاية لليتيم، والإيواء للمشرد، والتعليم للجاهل، والتشغيل للعاطل، والتدريب للعامل، والمشاركة الجادة في تنمية المجتمعات الإسلامية

من داخلها.

وقد رأينا إمامًا مثل «حسن البنا» يعطي العمل الاجتماعي من دعوته وحركته عناية بالغة، ويجعله أحد أهدافها الأساسية، وينشئ في كل شعبة قسمًا للبر والخدمة الاجتماعية، مهمته تنظيم فعل الخير، والدعوة إليه على كل صعيد.

إن بعض الحركات أو الأحزاب الإسلامية تحرم على نفسها العمل لخير الناس أو مساعدتهم حتى تقوم الدولة الإسلامية المرجوة، فكل مهمتهم هو «الانتظار» على طريقة «انتظار المهدي» الذي تنشق عنه الأرض، أو تنفرج عنه السماء، في يوم وليلة!.

و«مهدي» هؤلاء هو الدولة أو الحكم الإسلامي المنتظر، فهم واقفون في طابور الانتظار، بلا عمل يذكر، حتى يتحقق موعودهم!!.

حتى إن منهم من غلا، فقال: لا جهاد إلا تحت راية الدولة الإسلامية ولا دولة فلا جهاد، وبعبارة أخرى: تحت راية الإمام ولا إمام!! ولا أمر بمعروف ولا نهي عن منكر إلا في ظل الدولة المنشودة!! وبقي عليهم أن يقولوا: لا صلاة ولا زكاة إلا بعد قيام الدولة!!

العمل من الجميع:

وإن من آفاتنا كذلك كثرة المتفرجين، وانتظار العمل من الآخرين، والواجب أن يعمل الجميع كل على قدر جهده وطاقته **{فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ}** [التغابن: 16].

لا ينبغي أن ننتظر العمل من الحكام وحدهم، ولا من العلماء وحدهم، ولا

من أصحاب المال أو الجاه أو الثقافة وحدهم، وإنما ننجح حقًا يوم نستطيع أن نحرك الجماهير المسلمة الغفيرة بالإسلام والإسلام، كما فعل اليهود حين حركوا يهود العالم كله من أجل أرض الميعاد، رغم تفرقهم في أقطار الدنيا وتقطيعهم في الأرض أممًا.

فعلينا أن نحرك المسلمين كل المسلمين ليقوم كل بدوره قدر وسعه، للرجل دوره، وللمرأة دورها، وللصبي والكبير، وللغني وللفقير، المهم أن يعمل الجميع، وإن يوضع كل في مكانه الملائم، من استطاع أن يميط شوكة عن طريق فليمطها، من أمكنه أن يبذر حبة في الأرض فيبذرها.

من قدر على أن يعطي درهمًا واحدًا فليبذله ولا يستقله. ولا يبالي بسخرية الساخرين من أهل النفاق **{ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** [التوبة: 79].

ومن يدري؟ لعل درهمًا واحدًا أثقل في الميزان عند الله من ألف، بل من مائة ألف.

وفي حديث رسول الله صصص: «**سبق درهم مائة ألف درهم**»! فقال رجل: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: «**رجل له مال كثير، أخذ من عرض ماله مائة ألف درهم فتصدق بها. ورجل ليس له إلا درهمان فأخذ أحدهما فتصدق به فهذا تصدق بنصف ماله**»[17].

---

(17) رواه النسائي وابن خزيمة وابن حبان في «صحيحيهما»، والحاكم وصححه على شرط مسلم.

إن الإسلام لا يهون من قيمة أي عمل صالح، وإن ضؤل حجمه، أو صغرت مساحته، أو قل عدده. وهو يقرر أن مثقال الذرة أو حبة الخردل من عمل الخير لا تضيع عند الله، كل ما يهمه هنا هو الروح المصاحبة للعمل، والنية الباعثة عليه.

فإذا كان وراءه نية صالحة وهدف رفيع، فإن الله يتقبل العمل بيمينه، ويضاعف الجزاء لصاحبه، وإن كان في صورته وكمه شيئًا قليلًا.

هذا ما يقرره القرآن صراحة في آياته حيث يقول: **{إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا}** [النساء: 40].

{فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ} [الزلزلة: 7].

{وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ} [الأنبياء: 47].

كلمة ختام:

وفي ختام هذه الصحائف نعود للسؤال الأصلي: أين الخلل؟

ونعود فنجمل الجواب، ونقول: إنه خلل عام وشامل، والمسئولية موزعة على الجميع وإن تفاوتت مقاديرها.

إنه ليس خللًا في الحركة الإسلامية وحدها، بل هو خلل في الأمة الإسلامية جمعاء.

وإن شئنا الصراحة، قلنا: إنه خلل في داخل كل منا، في أنفسنا التي بين جنوبنا، في حبنا لذواتنا، وطوافنا حولها كما يطوف الوثني بوثنه، في

محاولتنا تبرئة أنفسنا واتهام غيرنا، وإلقاء التبعة على كل أحد سوانا، يرى كل منا القذى في عين أخيه ولا يرى الخشبة في عينه!!

أجل، الخلل في كل منا، فهو يطلب من المسلمين أن يعملوا وهو فارغ، وأن يجاهدوا وهو قاعد، وأن يبذلوا وهو شحيح، وأن يضحوا وهو متفرج!!

الخلل في كل منا، حيث يؤمن بالله ولا يطيع أمره ... ويحب رسول الله ولا يتبع نهجه، ويريد الجنة ولا يسعى لها سعيها. ويخاف النار، ويسلك سبيل أهلها، ويفخر بالانتساب إلى الإسلام ولا يعمل لنصرته.

فطوبى لمن بدأ بإصلاح نفسه، ثم بدعوة غيره، ووضع يده في يد كل من كان على شاكلته من أهل الخير، غير متبرم بيومه، ولا يائس من غده، واثقًا من نفسه، معتزًا بدينه مؤمنًا بربه، آملًا في نصره الذي وعد به المؤمنين.

ورغم اتساع الخلل، فإن سده ممكن، وبواعث الأمل في انتصارنا أكبر من عوامل اليأس والقنوط.

ومما يقوي رجاءنا في المستقبل:

1 - أن معنا الحق الذي قامت به السموات والأرض، وبعث الله به خاتم رسله، وأنزل به آخر كتبه، والذي يحمل الهداية للفرد والسكينة للأسرة، والتماسك للمجتمع، والخير للإنسانية.

2 - وأن معنا فطرة الإسلام التي فطر الله الناس عليها، والتي يرجع إلى حظيرتها كل يوم أعدادٌ غفيرة، تهتدي بعد ضلال، أو تتوب بعد معصية، أو تستقيم بعد انحراف في الفكر أو في السلوك، أو تتنبه بعد غفلة وطول رقاد، وتنضم إلى قافلة العائدين إلى موكب الإسلام.

3 - وأن معنا شعوب الأمة الإسلامية، التي غدا الإسلام لحمتها وسداها، وأصبح جزءًا لا يتجزأ من كيانها العقلي والنفسي والاجتماعي، فلا يمكنها أن تعيش وتحقق ذاتها إلا بالإسلام ولا يحركها شيء كما تحركها كلمة الإسلام، وقد جربت «الحلول المستوردة» من الشرق والغرب، فلم تحقق بها أملًا، ولم يبق إلا «الحل الإسلامي» منقذًا.

4 - وأن معنا مصلحة الإنسانية، التي شقيت بفلسفات البشر، وتشريعات الأرض، فما عاد يسعدها إلا هداية السماء، ولا توجد هذه الهداية نقية مصفاة إلا في رسالة محمد ﷺ التي حفظ الله كتابها، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

5 - ومعنا قبل ذلك كله وبعده: تأييد الله تبارك وتعالى، الذي وعد بنصر من ينصره، وتكفل بأن يظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون، وأن يتم نوره، وإن كاد له الكائدون: **{يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ 32 هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ}** [التوبة: 32، 33].

* * *